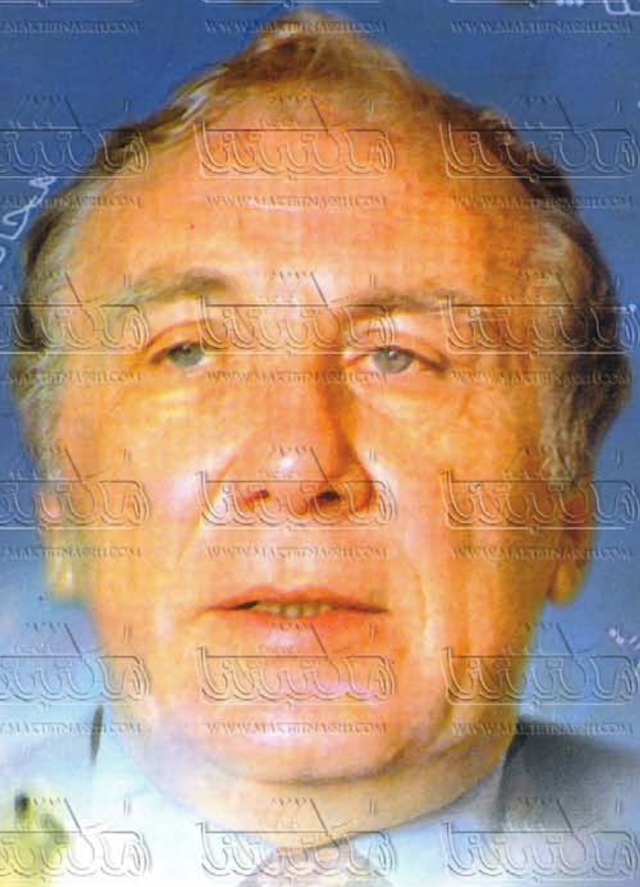
230

أسرار القصائد الممنوعة لشاعر الحب والحرية

نزار قباني



قصائد خلف الأسوار

محمد رضوان

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



قصائد خلف الأسوار، قصائد نزار قبانى السياسية الجريئة، تلك التى أثارت جدلا واسعا في البلدان العربية، فصودر بعضها، ومنع بعضها، وأسدل الستار على البعض الآخر لتحبس في الظلام . ولزمن طويل بقيت هذه القصائد سجينة، تعانى القهر والتفتيش والمطاردة، حتى خرجت إلى النور تحمل بين حروفها أوجاع شاعر مغنى، روح ... الحب والمرأة، وشاعر الجرأة، ومسميات أخرى عديدة

لكن المثير أن ... كان أيضا ذلك الشاعر الثائر .. الغاضب.. الناقد.. الجرئ في مواجهة الآخرين فهو الذى قال :

لا قيمة لشعر يحترف الخوف والتستر.. فالشعر يجب أن يكون كشفا وإضاءة.. وتعرية للزيف والزائفين أو لا يكون، حيث لم يبق للشاعر بعد زمن الانكسارات سوى حصان واحد يمتطيه، هو الغضب.

وفى هذا الكتاب أخطر قصائد نزار السياسية، ودراسة تحليلية عنها، بالإضافة إلى رحلة ممتعة في عالم الخيال والمتعة، عالم نزار قبانى الشعرى بكل بروقه ورعوده، وبكل نسيمه وأقماره وجداوله.. فهو القائل:

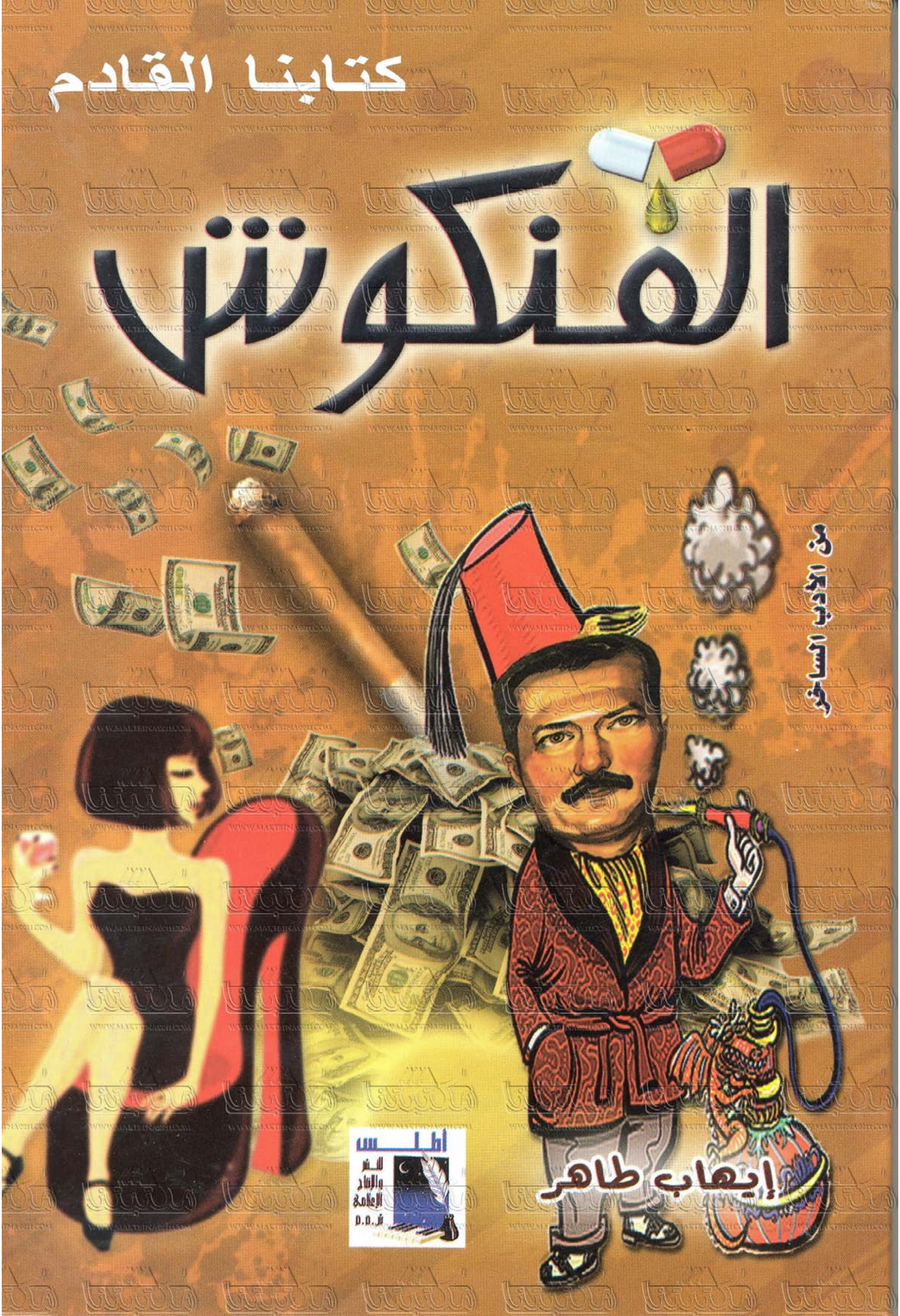
لم يزل ماكتبته يسكر الكون ويجرى كالشهد تحت لسانى..!!

W.Salama 010 15 17 873

Monday
28/5/2012
Riyadh

I.S.B.N. 977-376-062-6
9 789773 760626

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



كتابنا القادم
الفنكوش
من الأدب الساخر
أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ش.م.م
إيهاب طاهر

أسرار القصائد الممنوعة
لشاعر الحب والحرية

نزار قباني

قصائد خلف الأسوار

أسـرار القصـائد المنـوعـة
لشـاعـر الحـب والحريـة

نزار قباني

قصائد خلف الأسوار

محمـد رضـوان

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشـق - القاهـرة

نزار قباني

قصائد خلف الأسوار!

الإهداء

إلى الحبيب المجهول..
إلى أمنية القلب والروح
علها تملأ صومعة الفكر
تغريدا وحنانا

محمد رضوان

قاتلت خمسين سنة
حتى أقيم دولة الحب التي أريدها
ودولة الإنسان
لكنني اكتشفت أن ما كتبته
ليس سوى حفر على الصوّان

نزار قباني

مقدمة

نسر الشعر العربي!

لم يحظ شاعر عربي بالشهرة الواسعة التي بلغها نزار قباني «١٩٢٣ - ١٩٩٨» الذي عبر عن نبض الأمة العربية عاطفيا وسياسيا واجتماعيا على مدى نصف قرن حتى يمكن أن نطلق عليه لقب «جبرتي الشعر» فكما عبر عبد الحليم حافظ عن أحاسيس ومشاعر الإنسان العربي المعاصر، وشارك بصوته العذب في الأحداث القومية الكبرى التي مرت بأمتنا العربية منذ ثورة ١٩٥٢ حتى رحيله ١٩٧٧ وترك لنا أغنياته كسجل حي لمشاعرنا وأحاسيسنا وأحداثنا العربية الكبرى خلال ربع قرن، فإن نزار قام بنفس المهمة شعراً خلال خمسين عاما وهو مالم يحدث لشاعر قبله.

وكأن نزار قباني نسر عفي طار بجناحي الحب والحرية وظلل منطقتنا العربية ليشدو على قيثارة الشعر أحلى أنغام الحب وأقوى أناشيد الثورة والتمرد والمقاومة وأصغى له الناس شبابا وشيوخا نساء ورجالا، ورغم ضراوة المعارك التي خاضها دفاعا عن الحرية والجمال والتقدم بجرأته وشجاعته وصراحته العارية ظل متمسكاً بآرائه وأفكاره ومواقفه لأنه على حد قوله كان يعرف منذ أن بدأ كتابة الشعر في منتصف الأربعينات أن أصابعه سوف تحترق، وثيابه سوف تحترق، وسمعته سوف تحترق.. وأن الشعر ليس نزهة في ضوء القمر، ومنذ دخل نزار غابة الشعر، كان يعرف أن رحلته سوف تكون انتحارية، وأنه قد يعود إلى بيته، وقد لا يعود.

لذلك فأنا أكتب، ولا أضع في جيبي بوليصة تأمين على الحياة كما يفعل الملاكمون، والمصارعون، ولاعبو الكاراتيه.. وإنما أرمي نفسي في البحر دون أن يكون معي صفارة أو طوق نجاة.

من أجل هذا لا تدوخني القبلات.. ولا تميتني الطعنات.. فالقبلات والطعنات هي الهرمونات الرئيسية التي تبقيني على قيد الحياة!!».

فنزار قباني كما يصف نفسه حالة دائمة التحول، وموجة ليس لها شكل نهائي.. فالتمرد أو العدوانية كما يسميها خصومه ليست جديدة عليه.. فهو شاعر تصادمي، وأن الشاعر الذي لا يصطدم بشيء لا يكتب شيئا.

مهمة الشاعر عند نزار أن يفتت كل الأشياء والأفكار والقناعات والأوهام التي أخذت شكل الحجر مهمته أيضا أن يفتت اللغة التي أخذت شكل الصخرة الصماء.. من وجهة النظر هذه اعتبر نزار عدوانيا... ومن هنا كانت هذه المعارك الكبرى التي أشعلها شعره على مدى نصف قرن.. معارك عاطفية واجتماعية وسياسية، فأصبح صورة لعصره بكل ما فيه من انتصارات وانكسارات ومكاسب وخسائر، ومشاعر وثورات، وقد ظل نزار حتى آخر لحظة في حياته يبدع لنا قصائد الحب والجمال والتمرد، لأنه كان يشعر بسلطان الشعر، إيمانا منه بأن الشعر لعبة خطرة في حياة العربي، وبأن شعره هو صوت من لا صوت لهم، أو على حد تعبيره هو جرح يحاول أن يعبر عن جراح الآخرين، وقد ساعده على ذلك الانتشار الواسع لتلك اللغة النزارية التي بلورها للقارئ منذ بدايته وجعلته يقف على منبر الشعر لمدة خمسين عاما دون أن يهتز المنبر تحت أقدامه واستطاع نزار بهذه اللغة الجديدة أن يكون شاعر تلك المرحلة التاريخية باتساعها وتضاريسها كافة، فالشعر كان الهواء الذي يتنفسه، إيمانا منه بأنه يقاوم الزمن بالشعر، وعندما سئل بم يقاوم الزمن أكثر بالحب أم بالشعر أجاب بلا تردد أنه يقاومه بالشعر، لأن الحب لا عمر له، فالحب برق.. لأنه ليس ثابتا في مكانه والمرأة أخذها في شعره وفي حياته أساسا وقضية لتفجير العالم من خلالها، وهكذا فالقصيدة بالنسبة لنزار تأتي أولا.. أما المرأة فهي في المقام الثاني، وتأتي عادة. كملحق للشعر. والحب عنده ليس محنته.. الحب حال ثورية وحال متجددة على الدوام، فهو لا يستطيع أن يفهم حبا مزروعا مثل شجرة على قارعة الطريق، أو كلوحة معلقة على جدار.. الحب حالات تتوالد من نفسها.. وأجمل ما في الحب هو الدراما.. فالموعد الذي لا يتحقق في الحب أجمل عنده من

الموعد الذي يتحقق، فنزار شاعر الحب وعاشق المرأة يرفض تماما أن تحتله المرأة جغرافيا، كما لا يحاول هو أيضا أن يحتلها جغرافيا، فالمرأة الذكية هي التي تتجنب مثل هذا الاحتلال الذي يشل قدرة الفنان ويلغي تفكيره.

إن نزار شاعر التمرد الذي عبر عن هموم الأمة العربية وأحداثها هو في نفس الوقت شاعر الحب والغزل رغم أن الغناء صعب في زمن الفجيعة، لكنه كان يهرب إلى «قصيدة الحب» بعد أن صار يشعر بأن عليه أن - ينقذ النفس العربية من الكآبة.. لأنه تعويض عن كل الهزائم في زمن الأحقاد والبغضاء وهو الذي قال:

(علينا أن نزرع الورد في زمن الأظافر والأنياب)!

* * *

وبعد، فهذه رحلة مع نزار قباني شاعر الحب والغزل والتمرد.. الشاعر الذي وصفوه بأنه «عمر بن أبي ربيعة هذا العصر».. ولكنه «عمر» عصري يقاتل فوق أرض وعرة، وفي مناخ عدائي، ويغني في غابة تسكنها الأشباح والعفاريت، فما بالك ونزار قد ظل خمسين عاما يحارب الأشباح والعفاريت، وأسماك القرش.. وقراصنة البحر!

وخلال هذه الرحلة الممتدة تعرضت قصائده للمنع والمصادرة والهجوم والتكفير .. وحجب الكثير منها عن قرائه.. ولكننا في هذا الكتاب نزيح الستار عن العديد من هذه القصائد، التي حجبت تحت سيف الرقابة حتى تهدأ روحه وتنفذ وصيته، ليصل شعره إلى كل قارئ عربي.

وسيظل نزار قباني دوما شاعر الحب والتمرد والثورة يعيش معنا بأشعاره وأفكاره ومواقفه، كنسر شعري جسور مازال رغم غيابه الجسدي محلقا في سماء الشعر العربي!

القاهرة ٣٠ إبريل ٢٠٠٤

محمد رضوان

الباب الأول

شاعر الحب والتمرد

(١٩٢٣ - ١٩٩٩)

يا أصدقائي..
إنني الجرحُ الذي يرفضُ دوماً
سُلْطَةَ السِكِيْن
يا أصدقائي الرائعينْ
أنا الشفاه للذين مالهم شِفاهْ
أنا العيونُ للذين مالهم عُيونْ
أنا كتابُ البحر للذين ليس يقرأونْ
أنا الكتابات التي يحفرها الدمعُ على غبار السجونْ
أنا كهذا العصر، يا حبيبتي
أواجه الجنونَ بالجنونْ
وأكسر الأشياء في طفولةِ
وفي دمي، رائحةُ الثورة والليمونْ

نزار

سيرة شاعر متمرد

ولد نزار قباني بحي مئذنة الشحم أحد أحياء دمشق القديمة في ٢١ مارس (آزار) ١٩٢٣ لأسرة دمشقية عريقة من أبرز أفرادها جده أبو خليل القباني من أبرز مؤسسي المسرح العربي في القرن التاسع عشر.

أما والده توفيق القباني فكانت صناعته الحلوى وكان أحد رجالات الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي.

وقد أنجب توفيق قباني ستة أبناء هم: نزار - رشيد - هدباء - معتز - صباح - وصال.

أما أخته وصال فقد ماتت في ريعان شبابها، أما أخوه «صباح» فكان يشغل منصب مدير الإذاعة السورية حصل نزار على شهادة البكالوريا من مدرسة الكلية العلمية الوطنية بدمشق ثم التحق بكلية الحقوق بالجامعة السورية وتخرج فيها سنة ١٩٤٥.

عمل فور تخرجه بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية السورية وكان أول منصب تقلده وهو في الثانية والعشرين من عمره ملحقاً بالسفارة السورية في القاهرة وقضى فيها ثلاث سنوات (١٩٤٥ - ١٩٤٨) وكانت فترة عمله بالقاهرة فترة هامة في حياته وشعره إذ يقول في أحد اعترافاته:

«للقاهرة عليّ فضل الربيع على الشجر، وبصمات يديها ترى واضحة على مجموعتي الثانية «طفولة نهد» المطبوعة في القاهرة سنة ١٩٤٨ .

«طفولة نهد» كان نقلة حضارية هامة بالنسبة لشعري، فلقد صقلت القاهرة أحاسيسي، وعينيّ ولغتي الشعرية، وحررتني من الغبار الصحراوي المتراكم فوق جلدي.

كانت القاهرة في الأربعينات زهرة المدائن، وعاصمة العواصم العربية، وكانت بستانا للفكر والفن عز نظيره.

وقد أسعدني أن أدخل الوسط الأدبي والفني والصحفي من أعرض أبوابه،

وأعرف صفوة أعلامه، كالأستاذ توفيق الحكيم، المازني، محمد عبد الوهاب، كامل الشناوي، إبراهيم ناجي، أحمد رامي، محمد حسنين هيكل، أنور المعداوي».

* * *

بعد مرحلة القاهرة، شرد نزار في بلاد الله كلها، فعمل بالسلك الدبلوماسي السوري في كل من لندن، والصين، وأسبانيا وظل متمسكا بعمله الدبلوماسي حتى استقال منه سنة ١٩٦٦ ليؤسس «منشورات نزار قباني» في بيروت حيث استقر ببيروت لينشر دواوينه الشعرية عن دار النشر الخاصة به.

وقد ظل نزار في بيروت وعاصر الحرب الأهلية بها ولكن عندما لقيت زوجته «بلقيس» مصرعها تحت أنقاض السفارة العراقية ببيروت سنة ١٩٨٢ بدأ يشعر أن حياته وأولاده مهددة بالخطر فتنقل بين القاهرة وجنيف حتى استقر في لندن ليقيم فيها:

وقد تزوج نزار مرتين: الأولى من سورية تدعى «زهرة» وأنجب منها هدباء وتوفيق وزهراء وقد توفي توفيق بمرض القلب وعمره ١٧ سنة حين كان يدرس الطب بجامعة القاهرة والمرة الثانية من بلقيس الراوي العراقية سنة ١٩٦٩ وأنجب منها «عمر» وزينب» وبعد مصرع بلقيس سنة ١٩٨١ رثاها بدموع قلبه ورفض بعدها أن يتزوج وعاش سنوات حياته الأخيرة وحيدا في شقته بمنفاه الاختياري بلندن حتى رحيله في ٣٠ أبريل ١٩٩٨ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بعد رحلة ثرية مع الشعر استمرت على مدى نصف قرن.

أما قصته مع الشعر فهي حكاية طويلة.. فقد بدأ يكتب الشعر وعمره ستة عشر عاما.. وأصدر أول دواوينه «قالت لي السمراء» سنة ١٩٤٤ في دمشق وكان طالبا بكلية الحقوق وأثار ضجة كبيرة وهاجمه المحافظون هجوما لاذعا ثم أصدر ديوانه الثاني في القاهرة سنة ١٩٤٨ وهو «طفولة نهد» الذي رحب به الناقد المصري أنور المعداوي بمجلة الرسالة ثم توالت دواوينه الشعرية بعد ذلك وهي: سامبا (١٩٤٩) أنت لي (١٩٥٠) قصائد (١٩٥٦) حبيبتي (١٩٦١) الرسم بالكلمات (١٩٦٦) يوميات

امرأة لا مبالية (١٩٦٨) قصائد متوحشة (١٩٧٠) كتاب الحب (١٩٧٠) أشعار خارجة على القانون (١٩٧٢) أحبك أحبك.. والبقية تأتي (١٩٧٨) إلى بيروت الأنثى مع حبي (١٩٧٨) ١٠٠ رسالة حب (١٩٧٠) كل عام وأنت حبيبتي (١٩٧٨).

ثم توالت دواوينه الشعرية: أشهد أن لا امرأة إلا أنت - أشعار خارجه على القانون - خمسون عاما في مديح النساء - العصافير لا تطلب تأشيرة دخول - قاموس العاشقين - لا غالب إلا الحب - سيبقى الحب سيدي - الكبريت في يدي - تزوجتك أيتها الحرية - أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء - أشعار مغضوب عليها.

أما شعره السياسي الذي أثار حوله العديد من المعارك والمصادمات فقد صدر في مجلد واحد يضم حصيلة شعره السياسي (١٩٦٧ - ١٩٩٧) وكانت لكل قصيدة معركة سياسية عارمة واكب خلالها الأحداث القومية والسياسية الكبرى في الأمة العربية خاصة بعد نكسة ١٩٦٧ ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣ والاجتياح الإسرائيلي للبنان ومعاهدة السلام مع إسرائيل حتى التشرذم العربي، فكانت قصائد نزار أشبه بمنشورات سرية تعرض بسببها لعدة محاولات لاغتياله بل واغتيلت زوجته «بلقيس الراوي» التي زلزل موتها كيانه فآثر الرحيل إلى منفاه الاختياري في لندن ليستمر في معاركه السياسية من خلال قصائده النارية التي تبرق وترعد ولا تحايد.

* * *

وقد تغنى كبار المطربين والمطربات العرب بقصائد نزار العاطفية والسياسية:

- غنت له كوكب الشرق أم كلثوم قصيدتين: أصبح عندي الآن بندقية - ورسالة عاجلة إليك «عند رحيل الزعيم جمال عبد الناصر) ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب.

- عبد الحليم حافظ تغنى له بقصيدتين: رسالة من تحت الماء - قارئة الفنجان «من ألحان محمد الموجي»

- نجاة الصغيرة «أيظن - ماذا أقول له - كم أهواك - أسألك الرحيلا «كلها من

تلحين الموسيقار محمد عبد الوهاب».

- فيروز غنت له قصائد: وشاية - لا تسألوني ما اسمه حبيبي - ألحان عاصي رحباني»

- فايزة أحمد قصيدة «رسالة من امرأة» ألحان محمد سلطان.

- ماجدة الرومي «٣ قصائد هي: بيروت ست الدنيا - مع جريدة من ألحان د. جمال سلامة - ثم قصيدة «كلمات» ألحان إحسان المنذر.

- كاظم الساهر غنى قصائد «إني خيرتك - زيديني عشقا - علمني حبك - مدرسة الحب» كلها من ألحانه.

- أصالة «قصيدة اغضب» لحنها حلمي بكر.

* * *

وقد ظل نزار قباني حتى آخر نسمة في حياته رمزا لقوة الإرادة والشموخ والصمود - يرسل قصائده كصواعق دون أن يخاف أو يتراجع حتى سقط وهو يحمل قلمه وظل حتى النهاية كما وصف نفسه «فأنا كماء البحر: في مدّي.. وفي جزري وعمق تحولاتي».

ولم أجد أبلغ ولا أعمق من تقييم شاعرة الرقة العاطفية د. سعاد الصباح لتجربة نزار قباني الشعرية وتأثيره العميق في الحياة العربية على مدى خمسين عاما، تقول د. سعاد: (١)

«لا يزال نزار قباني يعمر جمهوريته الشعرية على امتداد الوطن العربي منذ خمسين عاما، حتى صارت جمهوريته أشهر من جمهورية أفلاطون.

لم يترك بيتا لم يدخله..

ولم يترك طفلا لم يلعب معه..

ولم يترك حديقة لم يجلس تحت أشجارها..

ولم يترك عاشقا إلا احتضنه..

(١) الكتاب التذكاري: نزار قباني شاعر لكل الأجيال / دار سعاد الصباح.

ولا عاشقة إلا أهداها ديوانا من شعره.. وعلمها كيف تكتشف الأنوثة.

نزار قباني لم يكن شاعرا عابرا في حياتنا.. بل كان خلاصة أيامنا ولعلي لا أغالي إذا قلت أن نزار هو الشاعر المبثوث على كل الموجات في سماوات الوطن العربي، وهو مثل أبي الطيب المتنبي، ملأ الدنيا، وشغل الناس.. ولا يزال يشغلهم حتى الآن..

إنه الشاعر الذي ترك بصماته واضحة على ثلاثة أجيال متعاقبة وكان عن جدارة، وجدان العرب وضميرهم، والناطق الرسمي بلسان من لا لسانِ لهم.

إنه شاعر كل الفصول..

فمع الصيف يأتي..

ومع رائحة دمشق يأتي...

ومع سيمفونية الأمطار يأتي..

ومع بكاء الوطن يبكي.. ومع نزيفه ينزف..

وفي الأعراس الشعبية يجلس مع الناس على الأرض ويتقاسم معهم أرغفة الخبز وأرغفة الحرية.

ثم تواصل د. سعاد شاعرة اللؤلؤ والجمر حديثها عن مغامرة نزار الشعرية الرائعة، فتقول:

منذ بداياته قرر نزار قباني أن يؤمم الشعر.. ويجعله خبزا للجميع

ودون مبالغة أقول إن هذا الفتى الدمشقي استطاع أن يصنع من الشعر عباءة من القصب، ومنذ خمسين عاما ونحن نلبس لغته الجميلة، ونكتسي بحرير مفرداته وتواصل د. سعاد الصباح الحديث عن اللغة النزارية وكيف استطاعت أن تصل لكل الناس:

ولأن نزار كان يريد أن يصل إلى كل الناس، كبارهم وصغارهم، رجالهم ونسائهم، مثقفيهم، وأنصاف مثقفيهم، أغنيائهم ومحروميهم.. قرر أن يخترع لغته.

لغة بإمكانها أن تصل إلى كل إنسان عربي، بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو الثقافي..

الشعر على يد نزار، صار للجميع...

وهكذا كسر نزار حاجز اللغة بين الشعر وبين الناس، وجعل من القصيدة حديقة عامة يدخلها الناس بلا تذاكر دخول.

وتختتم شاعرة اللؤلؤ والجمر د. سعاد الصباح الحديث عن مدرسة نزار قباني الشعرية فتقول:

على يد نزار قباني أصبحت مساحة الجمال أكبر من مساحة القبح.. ومساحة الحرية أكبر من مساحة الاستعباد.. ومساحة الحب أكبر من مساحة الكراهية.

على يد نزار قباني أصبح بإمكان المرأة أن تقرأ ديوان شعر دون أن تدخل سجن النساء.

على يد نزار قباني الشارع العربي أكثر شجاعة في مواجهة المتخاذلين والمهرولين...

صار شعر نزار في هذه الأيام ضرورة قومية، بعد أن كان في الخمسينيات ضرورة جمالية...

ففي كل مواجهة سياسية، أو قومية، أو نضالية، تكون قصائد نزار قباني على خطوط الدفاع الأمامية..

نزار موجود في كل مكان على خارطتنا النفسية..

لعيون المرأة شهر.. ولرائحة الشهداء كل شهور السنة.. لشفاه النساء قصيدة.. ولجراح الشهداء ألف قصيدة».

* * *

وبعد، فإن تحليل د. سعاد الصباح لشعر نزار يؤكد جمهوريته الشعرية الكبرى التي ظلت على مدى خمسين عاما ترفع رايات الحب والوطنية والعزة والشموخ من المحيط إلى الخليج... وبعد رحيله ترك لنا كنوزه الشعرية ليجمل حياتنا، ويجعلها أكثر روعة وعزة وشموخا

* * *

الباب الثاني

معارك نزار السياسية

خارجٌ دوماً على النصِّ أنا
خارجٌ دوماً على جلدي.. وعَظْمي
وشراييني أنا
سيّدُ التغيير.. والتفجير..
والتحريض.. والرفْضِ أنا
سيّدُ العُرية.. والمنفى، أنا
إنني حطّمتُ بالشِعْر قوانين هلاكُو
وتماثيلَ هولاكُو..
وسُلالات هولاكُو
ودفعتُ الثمنا

نزار

قصائد أثارت معارك

لقد فهم نزار قباني التمرد على أنه ثورة تغير جغرافية الإنسان العربي بكاملها، وتعيد تأليفه من جديد، فالعقل العربي في أزمة، لأنه توقف عن الفعل والانفعال، فهو أشبه بلوحة مكتوبة بالخط الكوفي سئمت نفسها.. ومطلوب من الثوريين العرب أن يكتبوا كلاما جديدا على ورق جديد، لأن الكلام القديم انفصل تماما عن دلالاته ورموزه.

وقد تخلل شعر نزار الحزن في سنواته الأخيرة، وتفسير ذلك بقوله أن حزنه لا يعني تخليه عن غضبه، وتوتره، وتمرده، كما لا يعني استسلامه لعصر الانحطاط العربي كل ما في الأمر، أنه شعر بأن صراخه يتفتت على رمال هذه الجاهلية العربية، وأن الشعر وحده لم يعد كافيا لإخراج الجسد العربي من حالة الإغماء:

ورغم كل هذه السماوات الرمادية التي تحاصرني، فأنني لا أزال أؤمن بأن الشعب العربي بخير، والأطفال العرب بخير وأن أزهار شقائق النعمان لابد أن تطلع ذات صباح من تحت هذا الخراب الكبير» .

وكان نزار يرى أن الشعب العربي ينتظر البطل، بعد رحيل جمال عبد الناصر البطل الثاني الذي جاء بعد صلاح الدين.

***

وسوف نستعرض هنا أشهر قصائد نزار السياسية التي أثارت حولها الكثير من الغبار والمعارك الحامية التي تعرضت قصائده بسببه للحجب أو المنع أو المصادرة . أو تعرض هو بسببها للاغتيال بعض هذه القصائد غير متوافر . . وبعضها شبه مغيب . . لكننا هنا نعرض لتلك القصائد كاملة . . ونعرض خلفياتها وملابساتها . . ومعاركها . .

خبز وحشيش وقمر

في عام ١٩٥٤ فاجأ نزار المجتمع السوري المحافظ والمجتمع العربي كله بصرخة احتجاج وتمرد أطارت صوابه لجرأتها الجارحة في تعرية الواقع، وكشف الزيف عن حقيقة مجتمعاتنا الشرقية المتواكلة التي تتكلم أكثر مما تعمل والتي تأخذ الحياة بلا مبالاة بينما الآخرون يتقدمون بالعلم والعمل الجاد المخلص...

فاجأ نزار المجتمع السوري الذي هو جزء من المجتمع العربي بقصيدته الصارخة «خبز وحشيش وقمر» فانبرت سيوف الجهل والجمود تهدد وتتوعد ذلك الشاعر المارق الذي خرج عن الاجماع وأدان مجتمعهم وكشف زيفهم فكانت تلك القصيدة أول مواجهة بالسلاح الأبيض بين نزار وبين الخرافة وبين التاريخيين...

شعر نزار قباني يومئذ أن التاريخ يعيد نفسه حين تذكر أحد أبرز أفراد أسرته «أبو خليل القباني» عم والده.. تذكر أن هذا الرجل هز الباب العالي» وهز معاضل الدولة العثمانية، في أواخر القرن التاسع عشر كان أعجوبة كان يؤلف الروايات المسرحية، ويخرجها ويكتب السيناريو، ويضع الحوار، ويصمم الأزياء، ويغني، ويمثل، ويرقص، ويلحن كلام المسرحيات، ويكتب الشعر بالعربية والفارسية وحين كانت دمشق لا تعرف عن الفن المسرحي غير خيمة «قرى كوز» ولا تعرف من الأبطال، غير أبي زيد الهلالي، وعنتر، والزير سالم، كان أبو خليل يترجم لها موليير عن الفرنسية، وفي غياب العنصر النسائي، اضطر الشيخ إلى إلباس الصبية ملابس النساء، وإسناد الأدوار النسائية إليهم وطار صواب دمشق، وأصيب مشايخها، وبعض رجال الدين فيها بانهيار عصبي، فقاوموه بكل ما يملكون من وسائل، وسلطوا الرعاع ليشتموه في غدوه ورواحه، وهجوه شعرا، ولكنه ظل صامدا، وظلت مسرحياته تعرض في خانات دمشق، ويقبل عليها الجمهور الباحث عن الفن النظيف.

وحين يئس رجال الدين الدمشقيون من تحطيم أبي خليل، ألفوا وفدا ذهب إلى الآستانة وقابل الباب العالي، وأخبره أن أبا خليل القباني يشكل خطرا على مكارم الأخلاق، والدين، والدولة العلية أو أنه إذا لم يغلق مسرحه، فسوف تطير دمشق من يد آل عثمان، وتسقط الخلافة.

وخافت الخلافة بالفعل على نفسها، فصدر فرمان سلطاني بأغلاق أول مسرح طليق عرفه الشرق وغادر أبو خليل منزله الدمشقي إلى مصر، وودعته دمشق بالحجارة والبندورة والبيض الفاسد.

ويسترجع نزار قباني تلك الحقبة في اعترافاته، فيقول:

«وفي مصر، التي كانت أكثر انفتاحا على الفن، وأكثر فهما لطبيعة العمل الفني، أمضى أبو خليل بقية أيام حياته، ووضع الحجر الأول في بناء المسرح المصري».

إن انقضاض الرجعية على أبي خليل، هو أول حادث استشهاد فني في تاريخ أسرتنا وحين أفكر في جراح أبي خليل، وفي ألوف المسامير المغروزة في لحمه، تبدو جراحي تافهة.. وصليبي صغيرا صغيرا»

ولذلك عندما واجه نزار أزمة قصيدته الجريئة المتمردة «خبز وحشيش وقمر» تذكر محنة أبي خليل القباني واحس أن العمائم نفسها التي طالبت بشنق أبي خليل هي نفسها التي تطالب بشنقه والذقون المحشوة بغبار التاريخ التي طلبت رأسه هي نفسها التي تطلب رأسه أيضا لأنه عبر عن الواقع المر الأليم بلا مداورة وبلا تزويق وبلا خداع...

عبر عن الواقع العربي الذي يعيش في ضباب الحشيش والمخدر اللذيذ وتحت سحر القمر وفي أجواء ألف ليلة وليلة التي لا يريدون أن يتحرروا منها، بل يستعذبون أن يظل أسارى لها أبد الدهر كانت القصيدة هي مبضع الجراح الذي يريد أن يستأصل الداء حتى يشفى الجسد وينطلق صحيحا قويا معافى.

كانت «خبز وحشيش وقمر» في العام ١٩٥٤ لونا جديدا من الشعر العربي لا يداجن ولا ينافق ولا يخفي الحقائق كانت نقدا شعريا صريحا وواضحا وجريئا... كانت صرخة تحذير ونداء لاستجماع الهمم للخروج من مهاوى الخمول والخنوع والبلادة.

جاءت القصيدة بعد نكبة ١٩٤٨ وضياع فلسطين بمثابة جرس إنذار لتجميع القوى واستعادة الصحوة العربية وكأنه كان يستشرف الغد بكل ما يحمله من مؤامرات ومخططات صهيونية واستعمارية تهدف إلى تمزيق الصف العربي وتوكيد

حالة الخنوع والاستغراق في الماضي وفي الذات دون العمل للمستقبل وقد أثارت تلك القصيدة مناقشات ساخنة في جلسات البرلمان السوري وهذه سابقة لم تحدث من قبل.

كانت «خبز وحشيش وقمر» صيحة شاعر مخلص يحب أمته ويعتز بعروبته وقوميته ولا يريد لها هذا الهوان والنوم في غياهب الماضي السعيد، في تلك الأجواء الحالمة المخدرة.

كانت كلمات تلك القصيدة التي زلزلت النفوس الغافية والقلوب النائمة تقول:

عندما يولد في الشرق القمر
فالسطوح البيض تغفو
تحت أكداس الزهر
يترك الناس الحوانيت ويمضون زمر
لملاقاة القمر
يحملون الخبز.. والحاكي إلى رأس الجبال
ومعدات الخدر...
ويبيعون ويشرون خيال...
وصور..
ويموتون إذا عاش القمر

* * *

ما الذي يفعله قرص ضياء؟
ببلادي
وبلاد البسطاء..
ماضفى التبغ وتجار المخدر

ما الذي يفعله فينا القمر؟

فتضيع الكبرياء

ونعيش لنستجدي السماء

لكسالى . . . ضعفاء

يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر

ويهزون قبور الأولياء

علها ترزقهم رزًا وأطفالا . . قبور الأولياء

ويمدون السجاجيد الأنيقات الطرر

وقضاء

في بلادي . . في بلاد البسطاء

* * *

أي ضعف وانحلال . .

يتولانا إذا الضوء تدفق

فالسجاجيد . . وآلاف السلال

وقداح الشاي . . . والأطفال . . . تحتل التلال

في بلادي

حيث يبكي الساذجون

ويعيشون على الضوء الذي لا يبصرون

في بلادي

حيث يحيا الناس من دون عيون

حيث يبكي الساذجون

ويحيون اتكال..
منذ أن كانوا يعيشون اتكال
وينادون الهلال.. «يا هلال
أيها النبع الذي يمطر ماس..
وحشيشا.. ونعاس
أيها الرب الرخامى المعلق..
أيها الشيء الذي ليس يصدق»
دمت للشرق.. لنا..عنقود ماس
للملايين التي عُطلت فيها الحواس

* * *

في ليالي الشرق لما.. يبلغ البدر تمامه
يتعرى الشرق من كل كرامه.. ونضال
فالملايين التي تركض من غير نعال
الملايين التي لا تلتقي بالخبز إلا في الخيال
والتي تسكن في الليل بيوتا من سعال
أبدا.. ما عرفت شكل الدواء..
تتردى جثثا تحت الضياء..
في بلادي حيث يبكي الأغبياء
ويموتون بكاء
كلما طالعهم وجه الهلال
ويزيدون بكاء

كلما حركهم عود ذليل «وليالي»
ذلك الموت الذي ندعوه في الشرق
«ليالي» وغناء»
في بلادي . . في بلاد البسطاء
حيث نجتر التواشيح الطويله
ذلك السل الذي يفتك بالشرق
التواشيح الطويله . .
شرقنا المجتر . . تاريخًا
وأحلاما كسوله . .
شرقنا الباحث عن كل بطوله . .
في «أبي زيد الهلالي»! . . .

هوامش على دفتر النكسة

كان شعر نزار حتى نكسة ٥ يونيه «حزيران» ١٩٦٧ شعرا وجدانيا عاطفيا لشاعر غزلي لعوب يكاد أغلب شعره يدور حول المرأة.. حتى أطلق عليه النقاد ورجال القلم والصحافة لقب «شاعر المرأة» رغم أن شعره لم يتخلف عن مواكبة القضايا القومية الكبرى أو الأحداث العاصفة فشارك بقصيدة «ثلاث رسائل من بورسعيد» عند حدوث «العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ولكن معظم شعره كان عن المرأة وللمرأة: الحبيبة والملهمة وفجأة هبت رياح ٥ يونيه «حزيران» سنة ١٩٦٧ التي هزت كيان الأمة العربية كلها، بعد تلك النكسة القاصمة التي أصابتها والتي كانت نقطة تحول في شعر نزار قباني..

وبقدر الجراح التي أصابت الأمة العربية في قدراتها ونظرتهم للزعيم جمال عبد الناصر، الذي كان أملها بعد تلك المؤمراة الكبرى التي أدت إلى النكسة، بقدر ما كان حجم التأثير النفسي كبيرا على النفوس.

وكانت نكسة يونيه ثمرة شديدة المرارة أصابت نزار في مقتل، وهزته من أعماقه، لكنه رفضها بقوة وبحسم ولكنه صمم على أن يبرز الأسباب التي أدت إلى تلك النكسة حتى نتجنبها فكانت قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» المانيفستو الذي ضمنه احتجاجه ومعارضته وغضبه وحزنه.

ويعرف نزار أنه لم يكتب في كل حياته الشعرية قصيدة بمثل هذه الحالة من العصبية والتهيج كانت صرخة حادة وجارحة أودعها نزار خلاصة أمله وتمزقه لما حدث:

-١-

أنعي لكم، يا أصدقائي، اللغة القديمة والكتب القديمه
أنعي لكم..

كلامنا المثقوب، كالأحذية القديمه..
ومفردات العهر، والهجاء، والشتيمه
أنعي لكم.. أنعي لكم
نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمه

-٢-

مالحة في فمنا القصائد
مالحة ضفائر النساء والليل، والأستار، والمقاعد
مالحة أمامنا الأشياء..

-٣-

يا وطني الحزين حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين

-٤-

لأن ما نحسه أكبر من أوراقنا..
لابد أن نخجل من أشعارنا..

-٥-

إذا خسرنا الحرب.. لا غرابه لأننا ندخلها..
بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابه
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابه
لأننا ندخلها..

بمنطق الطبلة والربابه

-٦-

السر في مأساتنا

صراخنا أضخم من أصواتنا..

وسيفنا أطول من قاماتنا

-٧-

خلاصة القضيه توجز في عباره

لقد لبسنا قشرة الحضاره والروح جاهليه..

-٨-

بالناي والمزمار.. لا يحدث انتصار

-٩-

كلفنا ارتجالنا خمسين ألف خيمة جديده

-١٠-

يوجعني أن أسمع الأنباء في الصباح

يوجعني.. أن أسمع النباح..

-١١-

ما دخل اليهود من حدودنا وإنما..

تسربوا كالنمل.. من عيوبنا

- ١٢ -

خمسة آلاف سنه ونحن في السرداب
ذقوننا طويله نقودنا مجهولة
عيوننا مرافئ الذباب يا أصدقائي:
جربوا أن تكسروا الأبواب
أن تغسلوا أفكاركم، وتغسلوا الأثواب
يا أصدقائي:
جربوا أن تقرأوا كتاب.. أن تكتبوا كتاب
أن تزرعوا الحروف، والرمان، والأعناب
أن تبحروا إلى بلاد الثلج والضباب
فالناس يجهلونكم.. في خارج السرداب
الناس يحسبونكم نوعا من الذئاب

- ١٣ -

جلودنا ميتة الإحساس
أرواحنا تشكو من الإفلاس
أيامنا تدور بين الزار، والشطرنج، والنعاس
هل «نحن خير أمة أخرجت للناس»؟..

- ١٤ -

لو أحد يمنحني الأمان . .
لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان
قلت له : يا سيدي السلطان
كلابك المفترسات مزقت ردائي
ومخبروك دائما ورائي . .
عيونهم ورائي . . أنوفهم ورائي . . أقدامهم ورائي . .
كالقدر المحتوم، كالقضاء
يستجوبون زوجتي . .
ويكتبون عندهم . .
أسماء أصدقائي . .
يا حضرة السلطان لأني اقتربت من أسوارك الصماء
لأنني . . حاولت أن أكشف عن حزني . . وعن بلائي
ضربت بالحذاء . . أرغمني جندك أن آكل من حذائي
لو أحد يمنحني الأمان من عسكر السلطان
قلت له : لقد خسرت الحرب مرتين
لأنك انفصلت عن قضية الإنسان

- ١٥ -

لو أننا لم ندفن الوحدة في التراب
لو لم نمزق جسمها الطري بالحراب
لو بقيت في داخل العيون والأهداب
لما استباحت لحمنا الكلاب

- ١٦ -

نريد جيلا غاضبا
نريد جيلا يفلح الآفاق
وينكش التاريخ من جذوره . .
وينكش الفكر من الأعماق
نريد جيلا قادما . .
مختلف الملامح . .
لا يغفر الأخطاء . . لا يسامح . .
لا ينحني . .
لا يعرف النفاق . .
نريد جيلا . .
رائدا . .
عملاق . .

-١٥-

يا أيها الأطفال.. أنتم سنابل الآمال

وأنتم الجيل الذي سيكسر الأغلال ويقتل الأفيون في رؤوسنا..

ويقتل الخيال..

يا أيها الأطفال أنتم - بعد - طيبون

وطاهرون، كالندى والثلج، طاهرون

لا تقرأوا عن جيلنا المهزوم.. يا أطفال

لا تقرأوا أخبارنا

لا تقتفوا آثارنا

لا تقبلوا أفكارنا

فنحن جيل الدجل، والرقص على الحبال

يا أيها الأطفال:

يا مطر الربيع. يا سنابل الآمال

أنتم بذور الخصب في حياتنا العقيمه

وأنتم الجيل الذي سيهزم الهزيمه

نشرت قصيدة «هوامش على دفتر النكسة» أول ما نشرت في مجلة «الآداب»[١] اللبنانية في أعقاب حرب ٥ يونيه حزيران مباشرة، وأحدث نشرها حرائق هائلة في الوطن العربي. وابتدأت ردود الفعل تأتي من كل مكان بين مدح وقدح، وتقديس من

(١) وهي مجلة أدبية مميزة صاحبها ورئيس تحريرها الأديب العربي الدكتور / تسهيل إدريس وقد ساهمت في الحركة الأدبية العربية المعاصرة وكانت منبرًا لكبار المبدعين العرب،

فئة، وتكفير من فئة أخرى.. وصودرت المجلة التي نشرت القصيدة، وأحرقت اعداها في أكثر من مدينة عربية.. ونسخت آلاف الصفحات من القصيدة وانتشرت بطريقة سرية.

واستمرت القصيدة تتفاعل في الوجدان العربي سلبا وإيجابا.

وكان نزار يتفرج على الحجارة المتساقطة على شبابيكه، بهدوء عجيب، وهو في مكتبه ببيروت، ويستمع إلى لعنات اللاعنين، وصراخ الصارخين بابتسامة عريضة.

لم يكن في نيته عندما كتب «الهوامش» أن يمارس تعذيب النفس، أو تعذيب الآخرين، ولا أن يسرق أضواء الكاميرا، حتى يشتهر، ففي ساعات الحزن الكبير تتكسر كل الكاميرات، ويصبح المجد باطل الأباطيل.

ثم ما هو هذا المجد الذي يأكل من جثة التاريخ.. ويترعرع في ظل الموت والخرائب؟

يشرح نزار موقفه أثناء تلك المحنة فيقول:

«كل ما فعلته هو أنني استقلت من وظيفة مغن في الكورس الجماعي، ورفضت نصوص الأناشيد التي كانت تجترها الجوقة بشكل غريزي

استقالتي لم تقبلها القبيلة إذ ليس من عادات القبائل أن تسمح لأولادها بالخروج على طاعتها ومناقشة آرائها بشكل علني.

ليس من عادة القبيلة – أي قبيلة – أن تقبل بمبدأ «النقد الذاتي» فالصحراء شديدة الغرور، وشمسها سيف نحاسي لا يقتنع بأي جدل أو حوار.

النقد الذاتي شيء مخالف للطبيعة العربية، وقناعة العربي بتفوقه، وتميزه وسوبرمانيته، قناعة لا تقهر.

فهو من طينة وبقية البشر من طينة أخرى.

هو من معدن الماس، وسائر الكائنات من فحم.

هو التاريخ والآخرون هوامش غير مرئية على جانبيه.

ويرى نزار أن هزيمة حزيران كانت بالنسبة للعربي أشبه بمسرح اللا معقول، قرأ عنها في الصحف، ونشرات وكالات الأنباء، ورأى مشاهدها على شاشات التليفزيون،

ولكنه لم يصدقها ولذلك لم يصدق أكثر العرب قصيدة نزار لدى نشرها للمرة الأولى، صدمتهم صيغتها، ولغتها، وأفكارها، ونبرتها القاسية.

كانوا قد أدمنوا «ديوان الحماسة» واستلقوا على وسائده المريحة، وكانوا واثقين من أنهم وحدهم يشربون الماء صرفا «ويشرب غيرهم كدرا وطينا»

وهنا حدث الانكسار الكبير بين ذاكرتهم وواقعهم بين الحلم وبين التطبيق.

وزادت الحملة على الشاعر الكبير في أنحاء متفرقة من الوطن العربي وهاجمه بعض الشعراء العرب، ومنهم الشاعر اللبناني «خازن عبود» الذي كتب عنه قصيدة بعنوان يا شاعر الدانتيل والفستان قال فيها:

لأنك ابتعدت عن قضية الإنسان
يا شاعر الدانتيل والفستان
لأنك ابتعدت عن قضية النضال
وعشت في شعرك
للذات والنساء والسيقان
فشعرك انحلال
يا شاعر النهود والكئوس والشراب
أفسدت في أمتنا الشباب

* * *

آخر من يحكي عن المأساه
عن سبب المأساه
من أنفق العمر بلا حساب
في الحب بين الناي والرباب

في مخدع الآهات بين الكأس والشراب
يا شاعر النهود والكئوس والشراب
أفسدت في أمتنا الشباب

وتوالت العديد من مقالات بعض الكتاب، وقصائد الشعر تهاجم نزار وتدين صراحته وغضبه وثورته على ماساة حزيران!

* * *

٣ - بين هوامش النكسة.. والهرم الرابع!

بعد الحملة الضارية التي شنت على نزار قباني من بعض الأقلام بعد انتشار قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» عام ١٩٦٧ وما ناله بسببها من صلب، ورجم وتشهير، وتخويف.

فقد وجهت إليه عريضة الاتهام التالية:

١ - أن نزار شاعر وهب روحه للشيطان وللمرأة، وللغزل الفاحش، فلا يحق له بالتالي أن يكتب شعر الوطنية.

٢ - نزار هو المسئول الأول عن هزيمة يونيه «حزيران» بما كتبه ونشره خلال عشرين عاما من شعر عاطفي ساعد على انحلال أخلاق الجيل الجديد.

٣ - أنه في «هوامش على دفتر النكسة» سادي يعذب أمته، ويرقص فوق جراحها.

٤ - أنه يثبط الهمم، ويقتل الأمل، وبالتالي فهو عميل يخدم بكلامه مصلحة العدو، ولذا يجب شطب اسمه من قائمة العرب.

٥ - أنه ليس وطنيا، ولكنه ركب موجة الوطنية، وولادته بعد «حزيران» كشاعر ثوري ولادة غير طبيعية!

وتبارت أقلام كثيرة تطالب بمنع دخول نزار قباني إلى مصر، وتستعدي عليه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بالإيماء أنه هو المقصود بالهوامش!

ولكن خاب قصدهم فقد وقف الزعيم جمال عبد الناصر إلى جانب نزار، يوم كانت الدنيا ترعد وتمطر على قصيدة «الهوامش» وكسر الحصار الذي كان يحاول أن يعزله عن مصر، بتحريض وإيحاء من بعض الشعراء الذين كانوا غير سعداء لاتساع قاعدة نزار الشعبية في مصر، فرأوا أن أفضل طريقة لإيقاف مده الشعري، وقطع جسوره مع شعب مصر، هي استعداء السلطة عليه، حتى أن أحدهم طالب وزارة الاعلام المصرية بمقال نشره في إحدى المجلات القاهرية بحرق كتبه،

والامتناع عن إذاعة قصائده المغناة من اذاعة القاهرة، ووضع اسمه على قائمة الممنوعين من دخول مصر.

وحين شعر نزار أن الحملة خرجت من نطاق النقد والحوار الحضاري، ودخلت نطاق الوشاية الرسمية قرر أن يتوجه مباشرة إلى الزعيم جمال عبد الناصر وبالفعل بعث إليه – عن طريق أحد كبار الصحفيين في مصر وهو الأديب الناقد «رجاء النقاش» بالرسالة التالية:

سيادة الرئيس جمال عبد الناصر

«في هذه الأيام التي أصبحت فيها أعصابنا رمادا، وطوقتنا الأحزان من كل مكان، يكتب إليك شاعر عربي يتعرض اليوم من قبل السلطات الرسمية في الجمهورية العربية المتحدة لنوع من الظلم لا مثيل له في تاريخ الظلم.

«وتفصيل القصة، أنني نشرت في أعقاب نكسة الخامس من حزيران قصيدة عنوانها «هوامش على دفتر النكسة» أودعتها خلاصة ألمي وتمزقي وكشفت فيها عن مناطق الوجع في جسد أمتي العربية، لاقتناعي أن ما انتيهنا إليه لا يعالج بالتواري والهروب، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا.

«وإذا كانت صرختي حادة وجارحة، وأنا اعترف سلفا بأنها كذلك فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة، ولأن النزيف يكون بمساحة الجرح.

من منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران؟

من منا لم يخدش السماء بأظافره؟

من منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض؟

إن قصيدتي كانت محاولة لإعادة تقييم أنفسنا كما نحن، بعيدا عن التبجح والمغالاة والإنفعال، وبالتالي كانت محاولة لبناء فكر عربي جديد يختلف بملامحه وتكوينه عن فكر ما قبل ٥ حزيران.

إنني لم أقل أكثر مما قاله غيري، ولم أغضب أكثر مما غضب غيري، وكل ما فعلته أنني صنعت بأسلوب شعري ما صاغه غيري بأسلوب سياسي أو صحفي.

إذا سمحت لي يا سيادة الرئيس أن أكون أكثر وضوحا وصراحة، قلت إني لم أتجاوز في قصيدتي نطاق أفكارك في النقد الذاتي، يوم وقفت بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة، وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

إنني لم أخترع شيئا من عندي، فأخطاء العرب النفسية والسياسية والسلوكية، مكشوفة كالكتاب المفتوح.

وماذا تكون قيمة الأديب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض الأسود معا؟

ومن يكون الشاعر يوم يتحول إلى مهرج يمسح أذيال المجتمع وينافق له؟

لذلك أوجعني يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتي من دخول مصر، وأن يفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها.

والقضية ليست قضية مصادرة أو مصادرة شاعر لكن القضية أعمق وأبعد.

القضية هي أن نحدد موقفنا من الفكر العربي. كيف نريده؟

حرا أم نصف حر؟ شجاعا أم جبانا؟ نبيا أم مهرجا؟

القضية هي أن يسقط أي شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائي لأنه تفوه بالحقيقة.

والقضية أخيرا، هي أن نعرف ماذا كان تاريخ ٥ حزيران سيكون تاريخا نولد فيه من جديد، بجلود جديدة، وأفكار جديدة، ومنطق جديد.

قصيدتي أمامك يا سيادة الرئيس، أرجو أن تقرأها بكل ما عرفناه عنك من سعة أفق، وبعد رؤية، ولسوف تقتنع، برغم ملوحة الكلمات ومرارتها، بأنني كنت أنقل عن الواقع بأمانة وصدق، وأرسم صورة طبق الأصل، لوجوهنا الشاحبة والمرهقة.

لم يكن بإمكاني، وبلادي تحترق، الوقوف على الحياد فحياد الأدب موت له.

لم يكن بوسعي أن أقف أمام جسد أمتي المريض، أعالجه بالادعية والحجابات والضراعات.

فالذي يحب أمته يا سيادة الرئيس، يطهر جراحها بالكحول، ويكوى - إذا لزم الأمر - المناطق المصابة بالنار.

سيادة الرئيس.

إنني أشكو لك الموقف العدائي الذي تقفه مني السلطات الرسمية في مصر، متأثرة بأقوال مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها. وأنا لا أطلب شيئا أكثر من سماع صوتي. فمن أبسط قواعد العدالة أن يسمح للكاتب أن يفسر ما كتبه، وللمصلوب أن يسأل عن سبب صلبه.

لا أطالب يا سيادة الرئيس، إلا بحرية الحوار، فأنا أشتم في مصر ولا أحد يعرف لماذا أشتم، وأنا أطعن بوطنيتي وكرامتي لأنني كتبت قصيدة، ولا أحد قرأ حرفا من هذه القصيدة.

لقد دخلت قصيدتي كل مدينة عربية وأثارت جدلا كبيرا بين المثقفين العرب إيجابا وسلبا، فلماذا أحرم من هذا الحق في مصر وحدها؟ ومتى كانت مصر تغلق أبوابها في وجه الكلمة وتضيق بها؟

يا سيادة الرئيس. .

لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه، والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد أن يكون شريفا وشجاعا في مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيدي الرئيس

لا أصدق أن يحدث هذا في عصرك

بيروت في ٣٠ تشرين الأول «أكتوبر» ١٩٦٧

نزار قباني

ويقول نزار قباني:

«ولم يطل صمت عبد الناصر، ولم تمنعه مشاكله الكبيرة، وهمومه التي تجاوزت هموم البشر، من الإهتمام برسالتي، فقد روى لي أحد المقربين منه، أنه وضع خطوطا تحت أكثر مقاطع الرسالة وكتب بخط يده التعليمات الحاسمة التالية:

١ - لم أقرأ قصيدة نزار قباني إلا في النسخة التي أرسلها إلي. وأنا لا أجد أي وجه من وجوه الاعتراض عليها.

٢ - تلغى كل التدابير التي قد تكون اتخذت خطأ بحق الشاعر ومؤلفاته، ويطلب إلى وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة.

٣ - يدخل الشاعر نزار قباني إلى الجمهورية العربية المتحدة متى أراد ويكرم فيها كما كان في السابق.

التوقيع : جمال عبد الناصر

بعد موقف جمال عبد الناصر، تغير الطقس، وتغير اتجاه الرياح.. وتفرق المشاغبون وانكسرت طبولهم، ودخلت «الهوامش» إلى مصر بحماية عبد الناصر، ورجعت أنا إلى القاهرة مرة بعد مرة.. لأجد شمس مصر أشد بريقا، ونيلها أكثر إتساعا، ونجومها أكثر عددا»

ويعلق نزار قباني على موقف الزعيم جمال عبد الناصر بقوله: (١)

«أجد أن الأمانة التاريخية تقتضي أن أسجل للرئيس جمال عبد الناصر، موقفا لا يقفه عادة إلا عظماء النفوس، واللماحون، والموهوبون الذين انكشفت بصيرتهم، وشفت رؤيتهم، فارتفعوا بقيادتهم وتصرفاتهم إلى أعلى مراتب الإنسانية والسمو الروحي.

فلقد وقف الرئيس عبد الناصر إلى جانبي، يوم كانت الدنيا ترعد وتمطر على قصيدتي «هوامش على دفتر النكسة» وكسر الحصار الرسمي الذي كان يحاول أن يعزلني عن مصر فقضيتي مع الرئيس عبد الناصر، ليست قضية شخصية، أي علاقة بين قصيدة ممنوعة ورقيب يمنعها.

إنها تتخطى هذا المفهوم الضيق، لتناقش من الأساس طبيعة العلاقة بين من يكتب ومن يحكم.. بين الفكر وبين السلطة.

فالعلاقة بين الكاتب وبين الحاكم علاقة غير سعيدة لأنها علاقة قائمة في الأصل على سوء الفهم وانعدام الثقة.

لا الكاتب يستطيع أن يتخلى عن غريزة الكلام،ولا الحاكم يقبل أن يسمع صوتا غير صوته، وإذا قبل أن يستمع فلا يطربه إلا صوت الكورس الرسمي.

ومنذ القديم كان الكلام يقف في جهة، والمقصلة تقف في الجهة المقابلة، ومع هذا لم يتوقف الكلام، ولم تتعب المقصلة!

لقد كسر الرئيس عبد الناصر بموقفه الكبير جدار الخوف القائم بين الفن وبين السلطة، وبين الابداع وبين الثورة، واستطاع أن يكشف، بما أوتي من حدس وشمول في الرؤية - أن الفن والثورة توأم سيامي ملتصق، وحصانان يجران عربة واحدة.. وإن كل محاولة لفصلهما سيحطم العربة، ويقتل الحصانين.

هكذا كانت العلاقة الحضارية بين السلطة والفكر، وبين الابداع وبين الثورة، وهكذا ظل نزار يقدر بكل اكبار هذا الموقف الحضاري لجمال عبد الناصر.

* * *

نزار .. ورحيل عبد الناصر

رغم ما قيل عن أن نزار كان في قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» يوجه نقدا لاذعا لحكم جمال عبد الناصر الذي أدى إلى النكسة، إلا أن موقف الزعيم الخالد من نزار وقصيدته قد أثبتت قناعة الزعيم الخالد بحرية الكلمة.

ورغم أن نزار قباني لم يكتب كلمة مديح في جمال عبد الناصر في حياته، ولم يكتب بيتا شعريا واحدا لتمجيده، إلا أن نزار قباني كان أكثر من بكى الزعيم الخالد من القلب عند رحيله في ٢٨ سبتمبر «ايلول» عام ١٩٧٠ فكانت أولى قصائده «قتلناك» أشبه بنهر من دموع العرب في ذلك اليوم الحزين، فانتشرت في أنحاء العالم العربي انتشارا واسعا، وأثارت الدموع، وقطعت نياط القلوب.

هذه القصيدة كتبها نزار بدماء قلبه النازف وهو يخاطب الزعيم جمال عبد الناصر وسط أهوال محنة الرحيل الدامي الذي هز الدنيا:

- ١ -

قتلناك . . ليس جديدا علينا
اغتيال الصحابة والأولياء
وكم من إمام ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء
فتاريخنا كله محنة وأيامنا كلها كربلاء . .

- ٢ -

نزلت علينا كتابا جميلا
ولكننا لا نجيد القراءه . .
وسافرت فينا لأرض البراءه
ولكننا . . ما قبلنا الرحيلا . .

تركناك في شمس سيناء وحدك..
تكلم ربك في الطور وحدك
وتعري.. وتشقى..
وتعطش وحدك..
ونحن هنا.. نجلس القرفصاء
نبيع الشعارات للأغبياء
ونحشو الجماهير تبنا وقشا
ونتركهم يعلكون الهواء..

-٣-

قتلناك
يا جبل الكبرياء وآخر قنديل زيت..
يضيء لنا في ليالي الشتاء
وآخر سيف من القادسيه
قتلناك نحن بكلتا يدينا
وقلنا المنيه..
لماذا قبلت المجيء إلينا؟
فمثلك كان كثيرا علينا..
سقيناك سم العروبة حتى شبعت..
رميناك في نار عمان.. حتى احترقت
أريناك غدر العروبة حتى كفرت
لماذا ظهرت بأرض النفاق..

لماذا ظهرت؟
فنحن شعوب من الجاهليه
ونحن التقلب . .
نحن التذبذب . .
والباطنيه . .
نبايع أربابنا في الصباح
ونأكلهم حين تأتي العشيه

- ٤ -

قتلناك . . يا حبنا وهوانا . .
وكنت الصديق، وكنت الصدوق،
وكنت أبانا . .
وحين غسلنا يدينا . . اكتشفنا بأنا قتلنا منانا . .
وأن دماءك فوق الوسادة . . كانت دمانا
نفضت غبار الدراويش عنا . .
أعدت إلينا صبانا . .
وسافرت فينا إلى المستحيل
وعلمتنا الزهو والعنفوانا . .
ولكننا حين طال المسير علينا
وطالت أظافرنا . . ولحانا
قتلنا الحصانا . .
فتبت يدانا . . فتبت يدانا . .

أتينا إليك.. بعاهاتنا..
وأحقادنا.. وانحرافاتنا..
إلى أن ذبحناك ذبحا بسيف أسانا..
فليتك في أرضنا ما ظهرت..

- ٥ -

أبا خالد.. يا قصيدة شعر.. تقال.
فيخضرُّ منها المداد..
إلى أين؟
يا فارس الحلم تمضي..
وما الشوط. حين يموت الجواد؟
إلى أين؟
كل الأساطير ماتت.
بموتك.. وانتحرت شهرزاد
وراء الجنازة.. سارت قريش
فهذا هشام..
وهذا زياد..
وهذا يريق الدموع عليك
وخنجره، تحت ثوب الحداد
وهذا يجاهد في نومه..

* * *

وفود الخوارج . . جاءت جميعا
لتنظم فيك . . ملاحم عشق . .
فمن كفروك . . ومن خونوك . .
ومن صلبوك بباب دمشق . .

* * *

أنادي عليك . . أبا خالد
وأعرف أني أنادي بواد
وأعرف أنك لن تستجيب
وأن الخوارق ليست تعاد.

الهرم الرابع

ثم توالت دموع نزار قباني ترثي الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، وتناجيه بآماله وآمال الأمة العربية في زعيمها الغائب الذي كانت تنتظر منه الكثير في معاركها الكبرى من أجل الحرية والكرامة والعزة التي عاش من أجلها، واستشهد في سبيلها ،ففاضت دموع نزار أنهارا .. ومنها هذه الدمعة الحري:

-١-

السيد نام . . السيد نام
السيد نام كنوم السيف العائد من إحدى الغزوات
السيد يرقد مثل الطفل الغافي في حضن الغابات
السيد نام . . وكيف أصدق أن الهرم الرابع مات؟
القائد لم يذهب أبدا بل دخل الغرفة كي يرتاح
وسيصحو حين تطل الشمس كما يصحو عطر التفاح
الخبز سيأكله معنا . .
ونقول له . . ويقول لنا . .
القائد يشعر بالإرهاق، فخلوه يغفو ساعات . .

-٢-

يا من تبكون على ناصر
السيد كان صديق الشمس،
فكفوا عن سكب العبرات
السيد مازال هنا . .

يتمشى فوق جسور النيل، ويجلس في ظل النخلات
عندي خطاب عاجل إليك
من الملايين التي تريد أن تراك
عندي خطاب كله أشجان
لكنني.. لكنني يا سيدي لا أعرف العنوان..

-٢-

الزرع في الغيطان، والأولاد في البلد
ومولد النبي، والمآذن الزرقاء،
والأجراس في يوم الأحد
وهذه القاهرة التي غفت
كزهرة بيضاء في شعر الأبد
يسلمون كلهم عليك
يقبلون كلهم يديك
ويسألون عنك كل قادم إلى البلد متى تعود للبلد؟..

-٣-

حمائم الأزهر، يا حبيبنا، تهدي لك السلام
معديات النيل، يا حبيبنا، تهدي لك السلام
والقطن في الحقول، والنخيل، والغمام
جميعها.. جميعها.. تهدي لك السلام
كرسيك المهجور في «منشية البكري» يبكي فارس الأحلام

والصبر لا صبر له.. والنوم لا ينام..
وساعة الجدار، من ذهولها، ضيعت الأيام
يا من سكنت الوقت، والتاريخ، والأيام..
عندي خطاب عاجل إليك..
لكنني يا سيدي.. لا أجد الكلام

- ٤ -

الحزن مرسوم على الغيوم، والأشجار، والستائر
وأنت سافرت.. ولم تسافر..
فأنت في رائحة الأرض، وفي تفتح الأزاهر..
في صوت كل موجة، وصوت كل طائر..
في كتب الأطفال، في الحروف، في الدفاتر
في خضرة العيون، وارتعاشة الأساور..
في صدر كل مؤمن، وسيف كل ثائر
عندي خطاب عاجل..
لكنني.. لكنني يا سيدي تسحقني مشاعري

- ٥ -

يا أيها المعلم الكبير
كم حزننا كبير
كم جرحنا كبير
لكننا.. نقسم بالله العلي القدير
أن نحبس الدموع في الأحداق ونخنق العبرة.

نقسم بالله العلي القدير
أن نحفظ الميثاق
ونحفظ الثورة..

-٦-

وعندما يسألنا أولادنا
من أنتم؟
في أي عصر عشتم؟
في عصر أي ملهم؟
في عصر أي ساحر؟؟
نجيبهم: في عصر عبد الناصر
الله.. ما أروعها شهادة
أن يوجد الإنسان في زمان عبد الناصر

إليه في يوم ميلاده

وعندما تحل الذكرى الأولى لميلاد الزعيم جمال عبد الناصر في يناير ١٩٧١ بعد الرحيل، يلقي نزار هذه القصيدة التي يخاطب فيها الزعيم الخالد:

زمانك بستان، وعصرك أخضر
وذكراك عصفور من القلب ينقر
دخلت على تاريخنا ذات ليلة
فرائحة التاريخ مسك وعنبر
وكنت.. فكانت في الحقول سنابل
وكانت عصافير.. وكان صنوبر
لمست أمانينا، فصارت جداولا
وأمطرتنا حبا، ولازلت تمطر
تأخرت.. عن وعد الهوى، يا حبيبنا
وما كنت عن وعد الهوى تتأخر..
سهدنا، وفكرنا، وشاخت دموعنا
وشابت ليالينا.. وما كنت تحضر
تعاودني ذكراك كل عشية
ويورق فكري.. حين فيك أفكر
وتأبى جراحي أن تضم شفاهها
كأن جراح الحب لا تتخثر
أحبك. لا تفسير عندي لصبوتي

أفسر ماذا؟ والهوى لا يفسر
تأخرت يا أغلى الرجال، فليلنا
طويل، وأضواء القناديل تسهر
تأخرت.. فالساعات تأكل نفسها
وأيامنا في بعضها تتعثر..
أتسأل عن أعمارنا؟ أنت عمرنا
وأنت لنا المهدي.. أنت المحرر
وأنت أبو الثورات.. أنت وقودها
وأنت انبعاث الأرض.. أنت التغير
تضيق قبور الميتين بمن بها..
وفي كل يوم، أنت في القبر تكبر..
تأخرت عنا.. فالجياد حزينة
وسيفك من أشواقه، كاد يكفر
حصانك في سيناء، يشرب دمعه
ويالعذاب الخيل إذ تتذكر
وراياتك الخضراء تمضغ دربها
وفوقك آلاف الأكاليل تضفر
نساء فلسطين تكحلن بالأسى
وفي بيت لحم، قاصرات وقصر
وليمون يافا يابس في حقوله
وهل شجر في قبضة الظلم يزهر؟

رفيق صلاح الدين. . هل لك عودة
فإن جيوش الروم تنهي وتأمر
رفاقك في الأغوار، شدوا سروجهم
وجندك في حطين. . صلوا. . وكبروا. .
تغني بك الدنيا. . كأنك طارق
على بركات الله. يرسو، ويبحر
تناديك من شوق مآذن مكة
وتبكيك بدر، يا حبيبي، وخيبر
ويبكيك صفصاف الشآم ووردها
ويبكيك زهر الغوطتين، ودمر

* * *

تعال إلينا. . فالمروءات أطرقت
وموطن آبائي. . زجاج مكسر
هزمنا. . ومازلنا شتات قبائل
تعيش على الحقد الدفين وتثأر
يحاصرنا كالموت. . ألف خليفة
ففي الشرق هولاكو. . وفي الغرب قيصر
أبا خالد. . أشكو إليك مواجعي
ومثلي له عذر. ومثلك يعذر
أنا شجر الأحزان، أنزف دائما
وفي الثلج، والأنواء، أعطى وأثمر
يثير حزيران جنوني ونقمتي

ويفسر نزار قباني موقفه من عبد الناصر فيقول: [1]

«في الخمسينات جاء عبد الناصر ليعطينا الأمل الكبير.. جاء البطل.. الشعوب دائما بانتظار البطل.. قد يكون عبد الناصر هو الثاني الذي جاء بعد صلاح الدين، وقد جمع هؤلاء المئة وخمسين مليون عربي تحت شعارات التحرر، ومكافحة الأمبريالية، والبناء، وتأسيس الإنسان العربي، فتبعناه

«وبانهيار عبد الناصر بعد مؤامرة ١٩٦٧ بدأت الأرض المالحة، وبدأ الخراب الكبير»

ومنذ ذلك التاريخ بدأت قصائد نزار تأخذ منحى جديدا، هو الكي بالنار لعلاج العاهات العربية المستعصية من أجل غد أكثر إشراقا.

شاعر الحب والحرية

قررت يا وطني اغتيالك بالسفر
وحجزت تذكرتي
وودعت السنابل، والجداول، والشجر
وأخذت في جيبي تصاوير الحقول
أخذت إمضاء القمر
وأخذت وجه حبيبتي
وأخذت رائحة المطر
قلبي عليك.. وأنت يا وطني
تنام على حجر

نزار

كان نزار قباني يؤمن بأنه جزء من هذا العالم العربي، جزء من تاريخه، جزء من غضبه، جزء من الزلازل التي تتجمع بداخله، جزء من انتصاراته.. وهزائمه.. وانهياراته العصبية حيث كان يعتبر بأن الشاعر العربي هو الوارث الشرعي لأحزان كربلاء.. وأهميته تتجلى في قدرته على زراعة شجرة ورد في غابة من المتفجرات وهكذا فإن صراخ الشاعر صراخ مبرر، وجنونه جنون شرعي، لأن كل ما حوله يدفعه إلى الصراخ والجنون.

ويفسر نزار موقفه الرافض الصادم، فيقول: «أنا كأبي الطيب المتنبي أنام ملء جفوني عن شواردها.. الذين يحبونني أشكرهم مرة.. والذين يكرهونني أشكرهم خمسين مرة.. والسبب أن الذين أشبعوني ضربا ولكما وعضا إنما فعلوا ذلك لأنني كسرت شيئا ما في ضمائرهم، وأضرمت النار في ثيابهم، وأفكارهم وعاداتهم القديمة، وربما لأني نزعت ورقة التوت عن أجسادهم الشاحبة، وحين رأوا أنفسهم في المرآة صرخوا.. وربما لأني أضأت شمعة في ليل جاهليتهم، وحين فاجأهم النور خافوا.. لأن نور الحقيقة فضاح.

«إنني اعترف أنني شاعر صدامي لا يتنازل، ولا يساوم، لا يغش بورق اللعب.. ولا يلبس الملابس التنكرية ولا يمسح الجوخ لأي سلطة ولأي سلطان» (١) ..

مرحلة ما بعد الهوامش

كان غضب نزار قباني كبيرا بعد ردود الفعل العنيفة أثر نشره قصيدة «هوامش على دفتر النكسة» وتوجيه الاتهامات إليه بأنه شاعر المرأة والعشق، فكيف يجرؤ ويدخل في بحار السياسة، فرد عليهم غاضبا وحزينا (٢) .

«حتى دموعي الحزيرانية رفضوها، فمن يبكي على صدر حبيبته لا يحق له أن يبكي على صدر وطنه، ومن يمارس العشق لا يحق له أن يمارس الثورة.

إن مثل هذا الكلام الانفعالي المغلف بالطهارة الثورية لا يفهم الثورة إلا من ثقب

(١) مجلة المجلة / لندن / ٢٩ ديسمبر ١٩٨٤ .

(٢) نزار قباني: قصتي مع الشعر .

ضيق، إنه يفرغها من شموليتها وأبعادها الإنسانية، ليحبسها في زجاجة ضيقة العنق، ويحول الثائرين، إلى كائنات غبية منفصلة عن لحمها، ودمها، وارتباطاتها الأرضية.

«إن مفهومي للوطن، والوطنية مفهوم تركيبي وبانورامي، وصورة الوطن عندي تتألف، كالبناء السيمفوني، من ملايين الأشياء: ابتداء من حبة المطر، إلى ورقة الشعر، إلى رغيف الخبز، إلى مكاتيب الحب، إلى رائحة الكتب» بهذا المفهوم الواسع للوطن تدفقت شاعرية نزار قباني في بحر السياسة الواسع، حول قضايا الأمة العربية القومية من أجل حريتها وعزتها وقوميتها.

وإذا كانت شرارة شعره القومي قد تفجرت غداة نكسة يونيه «حزيران» سنة ١٩٦٧، فإن تلك العجلة ظلت تدور حتى نهاية عمره.

وقد صور لنا الناقد د. صبري حافظ ملامح رحلة نزار قباني مع الشعر والحب والتمرد والحرية، لهذا الشاعر الذي يعد أكبر شعراء العربية المعاصرين شعبية وأوفرهم حظا من مشاعر القراء ومحبتهم، ويتساءل عن المغزى القدري لرحيل الشاعر في موعد دال هو يوم حلول الذكرى الخمسيني لنكبة فلسطين، وتأسيس الدولة العبرية على التراب الفلسطيني السليب الذي وضع شاعرنا قضيته في القلب من عالمه الشعري الرحيب، وجعل من تحريرها والحفاظ على جذوتها العادلة متقدة هما يتخلل كل قصائده السياسية المتعددة، وكأن القدر ربط بين حياة نزار وقضية العرب، فماذا يقول د. صبري حافظ؟ (١) ..

«رحل الشاعر الكبير نزار قباني في الساعات الأولى من فجر هذا اليوم الموعود. فجر الخميس ١ مايو ١٩٩٨، موعدنا مع النكبة وضياع فلسطين العزيزة، وكأن قلبه الرقيق لم يحتمل فظاظة الاحتفالات التي تترى وتتردد أصداؤها في كل أجهزة الاعلام الغربية، بالعيد الخمسيني لتأسيس الدولة العبرية، وتملأ شاشات التليفزيون الانجليزي في لندن، التي اختار أن يمضي بها بقية السنوات الأخيرة من

(١) المصور / ٣ مايو ١٩٩٦ .

حياته فآثر بموته الفاجع الهرب من هذه الفظاظة، فقد شاب الدمع في عيوننا، ولم يزل خنجر إسرائيل في ظهورنا»

وطرح بموته الصادم هذا المناسبة الأخرى علينا، مناسبة ضياع فلسطين، والثمن الفادح الذي دفعه الإنسان العربي والمثقف العربي والذي تتناساه تلك الاحتفالات العبثية بتأسيس الدولة العبرية فهل ثمة دولة في عالم اليوم تحتفل بعيدها الخمسين؟

وهل تولد الأوطان بصكوك اعلان مزيفة، كشهادات الميلاد المشكوك في صحتها؟

أو كشهادة الوفاة المزورة التي دأبوا على استصدارها طوال خمسين عاما لتشييع القضية الفلسطينية بها إلى مثواها الأخير ولكن هيهات فقد استطاع نزار قباني، وكوكبة شعراء المقاومة العرب معه، أن يبقوا فلسطين بقوة الشعر الناصعة حية ومتألقة في مواجهة شهادات الوفاة العبرية المزورة.

بعد شهر من عيد ميلاده الخامس والسبعين، عيد ميلاده الماسي، رحلت ماسة الشعر الأشد تألقا والأكثر شعبية لم يحتمل القلب المجهد مواجهة الذكرى الخمسين للنكبة فارتج وسكت. وكتب الطبيب الذي استدعى على عجل. بعدما رفض الشاعر العودة إلى المستشفى التي كسب فيها قبل بضعة شهور جولته الأخيرة مع القلب الذي أثخنته الجراح وأوجعته تصاريف الزمن العربي الرديء كتب على أثر نوبة قلبية في الرابعة من صباح الخميس، بينما تستيقظ عصافير السنونو التي عشقها وتزقزق ليوم ربيعي جديد.

لفظ نزار قباني أنفاسه الأخيرة وكأنه يرفض أن يشهد بزوغ هذا اليوم الكئيب وكأن هذا الربيع الجديد الذي يشهد مرور خمسين عاما على إخفاق الأمة التي تساءل بألم متى يعلنون وفاتها، عن تحرير أرضها السليبة هو الربيع الذي يرفض شاعر الحب والربيع أن يشهده لأن احتفال الدولة العبرية بعيدها الخمسين ينطوي لديه على أمر بالغ الشذوذ: ألم يصرخ في قصيدته

وطني يا أيها المغطى بالجراح
وطني
من أنت إن لم تفجر
تحت إسرائيل صندوق سلاح

في شقته المترعة بالشعر والزخارف العربية واللوحات بالدور الثالث في «هربرت ماتشان» رقم ٣٥ شارع سلون في وسط لندن، وبين يدي امرأتين من أحب النساء إليه بعد بلقيس، زوجته التي اغتالتها الحرب الأهلية اللبنانية وخلدها في ديوان كامل، وهما ابنتاه هدباء وزينب لفظ الشاعر أنفاسه الأخيرة، وانطلق إلى أرض الأنهار السبعة وموطن الياسمين، وكان نزار قباني قد كتب في وصيته التي خطها بيده وهو على سرير المرض في مستشفى القديس توماس الشهيرة، وهي من أكبر مستشفيات جامعة لندن التعليمية: «أرغب أن ينقل جثماني بعد وفاتي إلى دمشق ويدفن في مقبرة الأهل، وأرجو من جميع اخوتي وأهلي تنفيذ هذه الرغبة التي اعتبرها نهائية ولأن دمشق هي الرحم الذي علمني الشعر وعلمني الإبداع، وأهداني أبجدية الياسمين هكذا يعود الطائر إلى بيته والطفل إلى صدر أمه».

وبالرغم من موعد الشاعر الدال مع الموت، فإن دلالات هذا الموعد الخطيرة قد فاتت الكثيرين، وكان على الشاعر المشاغب أن يشاغب البلادة والغباء حتى في موته لأن عودة الطائر إلى بيته والشاعر إلى صدر دمشق الحبيبة لم تكن باليسر المطلوب، ولا كانت يمكن أن تمر دون أن تؤكد المصادفات أهمية ما أنفق الشاعر عمره في الدفاع عنه. فعندما اجتمع الأهل والأصدقاء والمعزون لتوديع جثمان الشاعر الكبير والصلاة على روحه الطاهرة في الجامع الكبير - مسجد ريجينت بارك بلندن، ظهر الجمعة، حاول بعض الذين هجاهم في أولى قصائده السياسية الباكرة «خبز وحشيش وقمر» حاول «من يستنشق الزكام من لحاهم والسل والعظام.

علها ترزقهم رزا وأطفالا
ويمدون السجاجيد الانيقات الطرر
في بلادي
في بلاد البسطاء

فكيف بدأت هذه الرحلة الشيقة مع الشعر والثورة؟

ويضيف د . صبري حافظ:

ولد نزار توفيق قباني في ٢١ مارس عام ١٩٢٣ في حي قديم بدمشق على مقربة من المسجد الأموي الكبير يدعى «مأذنة الشحم» وكان والده توفيق قباني من رجالات الثورة السورية الأماجد.. فرضع شاعرنا مع حليب أمه حب الثورة والعدل والوطن وكان من أجداده الأوائل أبو خليل القباني مؤسس المسرح العربي في القرن الماضي. فتعلم من تجربته أن على المبدع أن يشق طريقا جديدا مهما كلفه ذلك من مشاق. لأن خليل قباني تعرض لاضطهاد المشايخ الذي أغلقوا مسرحه واحتجوا على مشروعه الفني..

ونشأ نزار قباني في هذا الحي الشعبي الذي كانت بيوته القديمة تزخر بشجر الياسمين. حتى أصبح الياسمين بالنسبة له هو المرادف للوطن ولدمشق الفيحاء التي كان يفوح منها عطر الياسمين فيضخ أماسيها بأريجه الرقيق الحلو ودرس في مدارس الحي الابتدائية. وانتقل في المرحلة الثانوية إلى مدرسة الكلية العلمية الوطنية القريبة من باب العظم.

ثم درس الحقوق في الجامعة السورية وتخرج فيها عام ١٩٤٥ . ولما عمل الشاعر في السلك الدبلوماسي عاد مرة أخرى عاد مرة أخرى إلى الجامعة السورية والتحق بقسم اللغة الانجليزية حتى يتقنها. وحتى يستطيع أن ينهل من الثقافة الأجنبية التي تتيحها إجادته لها.. وواصل بعد ذلك العمل بالسلك الدبلوماسي فمثل بلاده في

القاهرة ولندن وبيروت وبيكين ومدريد.

ولكنه ترك العمل الدبلوماسي عام ١٩٦٦ وأسس دارا للنشر في بيروت واستقر بها حتى فاجأته الحرب الأهلية الدامية بها، ولكن الحرب التي كان نزار أول من هجاها لم تنجح في أن تجعله يترك بيروت، أو يكف عن أساطينها ومشعلو حرائقها كلماته اللاذعة، حتى اختطفت زوجته «بقليس» في انفجار السفارة العراقية ببيروت عام ١٩٨١، فترك على أثر هذا الحادث الأليم بيروت.. وتنقل بين باريس وجينيف حتى استقر به المقام في لندن التي انفق بها الأعوام الخمسة عشر الأخيرة من حياته ووافته المنية فيها.

لكن هذه التواريخ كلها لا أهمية كبيرة لها في حياة نزار قباني لأن حياة هذا الشاعر الكبير. أو بالأحرى الظاهرة الشعرية الضخمة، تقاس بالقصائد والدواوين، وتمتد هذه الحياة الشعرية الخصبة التي امتلأت بالقصائد والمعارك والمشاغبات لأكثر من نصف قرن. فقد بدأ نزار قباني كتابة الشعر وهو لايزال طالبا في الجامعة.

بل أصدر ديوانه الأول «قالت لي السمراء» ١٩٤٤ قبل تخرجه فيها. واستطاع نزار قباني منذ هذا الديوان الأول أن يبلور أسلوبه الشعري الخاص. ولغته الراقية والأنيقة واستعاراته السهلة الجميلة.

صحيح أننا نستطيع أن نلمس في هذا الديوان الأول بصمات أساتذته الأوائل الذين تعلم عليهم الشعر من شعراء دمشق البارزين ووقتها، وخاصة الشاعر الدمشقي الراحل خليل مردم بك.

وفي قصيدته حبلى يتحول الرجل الصامت الذي ينطوي عليه ضمير المخاطب في القصيدة إلى أداة شعرية لإدانة الرجل ولمنح المرأة حق التعبير عن ذاتها في آن واحد.

لا تمتقع!
هي كلمة عجلى
إني لأشعر أنني حبلى
وصرخت كالملسوع بي:
كلا
سنمزق الطفلا
وأردت تطردني
وأخذت تشتمني
لا شيء يدهشني
فلقد عرفتك دائما نذلا.

في هذا الديوان أيضا هتك نزار قباني الكثير من المحرمات على القصيدة العربية خاصة في القصيدة الشريرة التي تناولت هذا الموضوع الجنسي الخطير - السحاق - لأول مرة في شعرنا العربي الحديث. وبفنية بالغة الرهافة والرقة.

لكن هذا الديوان الذي تألق فيه نزار شعريا كان أول الدواوين التي تجلب له المشاكل إذ طالب المشايخ مصادرة الديوان ومحاكمة كاتبه بسبب احتواء هذا الديوان على قصيدته السياسية الأولى «خبز وحشيش وقمر» التي هاجمت الاتكالية والمتاجرة بالدين واستشراء النفاق الاجتماعي وفيه أيضا قصيدته الشهيرة «قصة راشيل شوارزنبرغ» التي وضعت القضية الفلسطينية على خريطة اهتماماته الشعرية منذ ذلك الوقت واستمرت تحتل مكانة مهمة فيه حتى رحيله في ذكرى نكبتها.

وتتابعت بعد ذلك دواوين نزار قباني حتى تجاوزت عددها الخمسة وثلاثين ديوانا، استطاع عبرها نزار قباني لا أن يكون مجرد شاعر كبير فحسب، بل أن يصبح ظاهرة شعرية كبيرة يدور حولها جدل كبير واختلاف شديد بين المثقفين. فبينما يجمع القراء على تقديره واغراقه بحبهم وتغنيهم بقصائده ولا غرو فهو الذي قال:

فأنا مقتنع
أن الشعر رغيف يخبز للجمهور
وأنا مقتنع - منذ بدأت -
بأن الأحرف أسماك
وبأن الماء هو الجمهور

وبينما استجاب القراء لقصيدة نزار قباني استجابة الماء للأسماك عزف النقد عن الاهتمام بأعماله أو وضعها في مكانة رفيعة على سلم القيم الشعرية والنقدية. وهذا إن دل فإنما يدل على عزلة الثقافة - وخاصة تلك التي تدعى بأنها رفيعة - عن قراء شعبنا العربي.

فقد تجاوز رصيد نزار قباني من رأس المال الرمزي في واقعنا الثقافي كل حدود، حتى دفع البعض إلى تطبيق مقولة بيير بورديو عليه والقائلة بأن رأس المال الرمزي عكس رأس المال الاقتصادي كلما ازداد تراكمه كلما قل تقدير الواقع الثقافي كجائزة وقد زرت نزار قباني عدة مرات في شقته اللندنية الجميلة وكنت أشعر كل مرة أن لدى هذا الشاعر الكبير ألما كبيرا من تجاهل النقد له. واحتفائه بمن هم أقل منه قامة وقيمة ممن يحسنون اصطناع المريدين وإثارة الجدل والضجيج حول إنجازاتهم المحدودة.

كان وقد ارتوى من اهتمام القراء حتى الثمالة متعطشا لاهتمام النقد بعالمه الشعري، وتحليله لإنجازاته التي كان يعز عليه أن يرى نسبة بعضها لغيره دون وجه حق.

وما أسهل المكابرة على نقد النخبة ونقادها، ولكن الصعب هو أن يرتد النقد أمام صدمة الموت إلى الصدق الجارح، وأن يعترف بالخطأ في حق قامة شعرية عملاقة أو بالأحرى ظاهرة شعرية فذة مثل نزار قباني فقد يمكن لشاعر أن يخدع الناس لبعض الوقت ولكنه لا يستطيع أن يخدعهم لكل الوقت.

لو كانت تجربة نزار قباني الشعرية من تلك التجارب الهشة التي تعتمد على ترويج نفسها، وترويج حفنة ضئيلة من المريدين لها، لأنفض الناس من حولها كما انفضوا من حول غيرها من التجارب الشعرية الملتمسة لكن تجربة نزار قباني الشعرية ظلت ملء السمع والبصر لنصف قرن من الزمان، والتف حولها قراء الشعر ومتذوقوه ونقاده، واشتبكوا مع قضاياها ورؤاها وإنجازاتها طوال نصف قرن من الزمان، وهذا خير دليل على أصالتها وعمقها.

ويتناول الناقد القضايا التي أثارها نزار قباني في دواوينه خلال رحلته الشعرية فيقول:

وإذا بحثنا القضية الأولى التي تطرحها دواوين نزار قباني علينا - وهي قضية المرأة - فسنجد بداءة أنه وضعها بقوة غير مسبوقة على خريطة الاهتمامات الشعرية، ليس باعتبارها موضوعا لاهتمام الرجل فلقد كان هذا هو شاغل الشعر العربي منذ عمر بن أبي ربيعة وقيس بن الملوح. ولكن باعتبارها كونا مستقلا يستحق الاكتشاف، وقارة تستدعي سبر شتى أصقاعها المجهولة، والخروج بها من منطقة المسكوت عنه إلى ضوء المصرح به والذي يدور حوله الجدل والخلاف. والواقع أن الحديث عن موقف نزار قباني من المرأة أو رؤيته الذكورية لها هو وقوع في شراك الحذلقة التقليدية، وإغفال للإنجاز النزاري الضخم الذي حقق نقلة جذرية في تعامل الشعر معها ونقل المرأة من مجرد كونها «موضوعا» للمعالجة الشعرية ليجعلها كيانا كاملا لا تخصص له قصائد، وإنما تكرس له دواوين كاملة الواحد تلو الآخر.

لقد تحولت المرأة عنده إلى القارة العربية المجهولة التي لم يكتشفها الرجل بعد، وجاء شعر نزار قباني ليقدم لأجيال عربية متلاحقة مفاتيحها وشفرات التعامل مع

عقلها وقلبها ومشاعرها. وإذا كان العديد من الروايات المصرية التالية لرواية «زينب» لمحمد حسين هيكل عن الريف المصري في ردود عليها على مستوى من المستويات، أو بلغة النقد الحديثة اشتباكات تناصية معها، فإن كل كتابة عن المرأة في شعر الأجيال اللاحقة تدير حوارها التناصي المضمر مع كتابة نزار قباني التي أسست رواسي عالمها في شعرنا الحديث.

وهناك مسألة مهمة في شعر المرأة عنده يغفلها كثيرون ممن تناولوا عالمه الشعري - وهي مسألة ليست بعيدة الصلة عن قضية الحداثة التي طالما نفاها بعضهم عن شعره - تجعله شاعرا حداثيا بكل معنى الكلمة فالحداثة بنت المدينة والحالة الحضرية ومنظومات العلاقات الفردية المتحررة من تقاليد الريف ومواضعات القبيلة. وشعر نزار قباني عن المرأة هو شعر المرأة في المدينة بلا نزاع، وشعر العلاقات الفردية التي تسعى لتأسيس فرديتها في فضاء المدينة الحر ونطرح عنها كل ميراث القبيلة المتخلفة الفج، وإن لم تستطع التحرر من مواريثه النفسية، أو رواسبه القيمية والتصورية، وهذه هي إشكالية شعر المرأة عنده، وهي إشكالية حداثية في المحل الأول. تسفر عن نفسها من خلال التوتر المستمر بين بنية القصيدة المحتفية بالجزئيات والتفاصيل الحسية الصغيرة، وبين المواقف التصورية التي تتحكم في تصرفات الأفراد - رجالا كانوا أم نساء - ونزوعاتهم للتحرر من مواضعاتها.

لقد خرجت قصيدة نزار قباني بالكتابة عن المرأة والتجسيد واستطاعت وهي تسعى لتجسيد مظاهر استلاب المرأة أن تضع أصابعها أيضا على جراح استلاب الرجل التي لا تندمل.

لكن نزار لم يعلم الشباب العربي كيف يعشق ويحب فحسب ولكنه وهذا هو الأهم، علم الجماهير العربية العريضة كيف تثور وتغضب للوطن وتحتج لكرامتها وكرامته، بدأ هذا حينما اكتشف نزار في نفسه تلك القدرة التهكمية اللاذعة في «خبز وحشيش وقمر» على الهجاء القارص، والنقد الاجتماعي اللاذع واستمرت هذه القدرة في التنامي وهو يمزق القناع الكاذب عن وجه «راشيل شوازرنبرغ» التي

أحالها الصهاينة إلى أيقونة تأسيس الدولة العبرية.

ويكشف للعالم عن فظائعها الخبيثة. وتواصلت وهو يتغنى ببطولات «جميلة بوحريد» و«الجندي المصري في جبهة السويس». وفضلا عن تلك الطاقة التهكمية والواضحة كانت له قدرته على هتك أقنعة الزيف والرياء الاجتماعي في الحب والبترول وبلغت تلك القدرة ذروتها في ثورته العارمة على العسف والطنطنة الفارغة والعيوب التي تسربت منها الهزيمة في «هوامش على دفتر النكسة» وفي تبشيره بعد انطلاقه فتح بالثورة الفدائية واحتفائه بانطلاق أصوات شعر الأرض المحتلة وتغنيه بـ القدس عندما وقعت من جديد في الأسر الصهيوني بعد تاريخها القديم مع الأسر الصليبي وينعي في عرس الخيول الفلسطينية قادة المقاومة كمال ناصر وكمال عدوان وأبي يوسف النجار وزوجته الذين اغتالتهم أيدي الغدر الصهيوني في شارع فردان ببيروت عام ١٩٧٣، ويجد البندقية الفدائية في «طريق واحد» ومراثيه العديدة لجمال عبد الناصر.

ولما تكاثرت عليه النصال في الزمن العربي الرديء وبلغت المهانات الزبى يتساءل بحزن وألم «متى يعلنون وفاة العرب» أو يشحذ قريحته الهجائية من جديد ليفضح «المهرولون» صوب التطبيع مع العدو الصهيوني وهو لايزال يحتل أراضي ثلاثة بلدان عربية. ويكتب منشورات فدائية على جدران إسرائيل ليزرع الرعب في قلوب المغتصبين صارخا:

أنا الفلسطيني
بعد رحلة الضياع والسراب
أطلع كالعشب من الخراب
نأتي
بكوفياتنا البيضاء
نرسم فوق جلدكم إشارة الفداء

من رحم الأيام نأتي كانبثاق الماء
من خيمة الذل يلعكها الهواء
من وجع الحسين نأتي
من أسى فاطمة الزهراء
من أحد نأتي ومن بدر ومن أحزان كربلاء
نأتي لكي نصحح التاريخ والأشياء
ونطمس الحروف في الشوارع العبرية الأسماء

فنزار قباني شاعر سياسي بالمعنى العريض وإن رفض التزام الشاعر بالسياسة بمعناه المذهبي الضيق. هو شاعر سياسي بمعنى أن التزامه الأول لم يكن بحزب أو مذهب سياسي وإنما بجوهر الثورة وعمق الرؤية المتغلغلة في ضمير الجماهير الشعبية العريضة التي نجد أن القاسم المشترك فيها على امتداد رقعة الوطن العربي الشاسعة - من المحيط إلى الخليج -

هو رفض الأنظمة التي تاجرت بكل مقدساتها السياسية ودنستها والوقوف بعزة مع كل لحظات المقاومة ورموزها من بورسعيد إلى جميلة بوحريد، ومن رفض الهزيمة إلى الاحتفاء بالمقاومة والاعتزاز بالفدائي الفلسطيني ومن السخط على الحكام الذين نهبوا ثروات الأمة إلى الزراية بالمهرولين للارتماء في أحضان العدو.

والواقع أن الشعر السياسي يكشف بعدا آخر في انجازه الشعري، فهذا العاشق الكبير هجاء كبير لتناقضات الواقع العربي ورافض كبير لهزائم الخانعين فيه والهجاء المر عنده هو الوجه الآخر للحب الرقيق لأنه ينبع هو الآخر من حب عميق لوطنه العربي الكبير، ومن ضيق لا ينفد بمن ينتهكون كرامته، لكن الوجه السياسي الأكبر لشعره والذي يصب حقا في صلب الشعرية هو ما يمكن دعوته بسياسته الشعرية. وهي سياسة اقتحامية لكل المحرمات الأخلاقية والاجتماعية والتعبيرية والفكرية والسياسية بالطبع. فاقتحام المحرمات وانتهاك حدودها عمل سياسي بقدر ما هو عمل شعري.

قطار التطبيع

ومن طبيعة التحدي عند نزار جاءت قصائد الرفض والتمرد، والدفاع عن الحضارة العربية ومستقبلها ضد المد الاستعماري والصهيوني وقد وقف معظم شعره القومي منذ نكسة يونيه «حزيران» ١٩٦٧ضد الوجود الصهيوني الاستيطاني، ورفض كل أشكال التطبيع والمسالمة مع ذلك الكيان،وكانت أكثر قصائده تعبيرا عن هذا الرفض المفعم بالمرارة والأسى قصيدته «المتنبي وأم كلثوم على قائمة التطبيع» التي يقول فيها:

وصل قطار التطبيع الثقافي إلى مقاهينا
وصالوناتنا.. وغرف نومنا المكيفة الهواء..
ونزل منه أشخاص غامضون يحملون معهم معاجم.. ودواوين شعر..
ويحملون معهم جرائد تقول
إن شاعر العرب الأكبر أبا الطيب المتنبي
صار وزيرا للثقافة في حكومة حزب العمل!!
وإن مطربة العرب الأولى السيدة أم كلثوم
سوف تغني قصيدة جديدة لشاعر إسرائيلي
وهكذا يستقيل الشعر العربي من كبريائه..
وتنسى عصافيرنا غناء المقامات. والتواشيح!!

* * *

هذا زمن التطبيع.. يا سيدتي يهجم علينا..
بكل سماسرته.. وشيكاته.. ومافياته..
ليجردنا من آخر ورقة توت.. نستر بها أجسادنا

وآخر قصيدة ندافع بها عن أنفسنا

هذا زمن «التركيع». . يا سيدتي يدخل علينا. .

مرة بشكل فيلسوف. . ومرة بشكل كاهن. .

ومرة بشكل جنرال. . ومرة بشكل كومسيونجي

إلى أن يصبح الوطن العربي مركزا للصرافة. . وبيتا للدعارة

* * *

تطبيع في الصباح. . وتطبيع في المساء. .

وتطبيع في الشارع. . وتطبيع في المقهى

حتى صرنا «طبعة ثانية». . صادرة باللغة العبرية. . من كتاب الأغاني!!

* * *

لذلك. . فكرت في تطبيع علاقاتنا العاطفية. . قبل أن يصل المقاولون. .

والمتعهدون. . وتجار الشنطة. . ومندوب صندوق النقد الدولي

وممثل الـ G. A . T . T. . وقائد حلف الناتو. .

وأميرال الأسطول السادس

ورئيس مجلس إدارة النظام العالمي الجديد. .

وعندئذ. . يكون كل شيء جاهزا للتوقيع على شهادة وفاة التاريخ العربي بالسكتة القومية !!

* * *

أريد . . أن أطبع علاقتي مع امرأة من لحمي ودمي
تعبق من بشرتها
رائحة النرجس، والريحـان، والورد البلدي . . والصابون النابلسي . .
وتتجمع في صوتها أسراب الحمام . . وشتول الياسمين الدمشقي.

❋ ❋ ❋

أريد أن أشرب قهوة الكابوتشينو . . معك . . وأكل مناقيش الزعتر معك . .
وأتحدث في السياسة معك . . وفي الثقافة معك . . وفي الحب معك . .
لا مع البولونيـات . . والهنغاريات . . والتشيكيـات . . والروسيات . .
القادمات إلينا في حقائب أمريكية . .
ومعهن . . كل عناوين البيوت الفلسطينية.

❋ ❋ ❋

أريد أن ألثم يديك . . قبل أن تفرغ أكواز العسل
وأن أتصالح . . قبل أن يرحل موسم شقائق النعمان . .
وأن أعلمك أوزان الشـعـر . . قـبل أن يقـتلوا الخليل بن أحـمـد الفراهيدي ! !

❋ ❋ ❋

أريد . . أن أنام في جوف راحتيك الصغيرتين . .
• قبل أن نصبح - أنت وأنا - أعضاء في نادي العراة وأقلية مضطهدة في وطن يتدحرج ككرة البليياردو نحو سواحل البحر الميت.

❋ ❋ ❋

أريد أن أسمعك قصيدة حب واحدة فهذه فرصتي الثقافية الأخيرة قبل أن يسجلوا صوتي.. ويراقبوا هاتفي..

ويختموا بالشمع الأحمر ذاكرتي..

هذه فرصتي الأخيرة.. حتى أدافع عنك.. وعن حريتي وعن زمن الشعر.. والياسمين

***

أريد أن احتفظ بآخر قميص كبرياء ألبسه

قبل أن يرموني كيوسف في غيابة الجب.. ويكتموا خبر موتي.. عن أبي.

***

أريد أن التصق بك قليلا حتى أشعر بشيء من الدفء

وشيء من الأمان.. وشيء من الكبرياء

وحتى أشعر أن هناك امرأة.. تستطيع أن ترمم هذا الخراب

الذي يتراكم فوق قلبي.. وفوق دفاتري..

***

ربما كان الحب يا سيدتي تعويضا عادلا.. عن هذا السقوط القومي الكبير..

وربما كان زورق النجاة الأخير.. في بحر الكراهية العربي.. وطوفان الشعوبية الجديدة..

***

إن العـالم كله يدور من حـولي والصفـقـات المالـيـة تعقـد من ورائي
والمقاولون يملأون فنادق المنطقة والبيع والشراء في أوجه
والدولارات تتناثر . . والضـمـائر تتناثر . . والسـماسـمرة . . يعـدون
الوثائق الرسمية . . لبيع التاريخ .

❋ ❋ ❋

هذا هو مسرح اللامعقول الذي كتب عنه صموئيل بكيت . .
بل هذا هو المسرح التجريبي الذي أدخل الجمهور العربي
في مرحلة الكوما . . والصرع . . وانهيار الأعصاب

❋ ❋ ❋

الذين زاروا أخيرا قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق
قـالوا إنه مصـاب بحـالة اكتـئاب . . وممتـنع عن قراءة الصـحف . .
ومشاهدة التليفزيون .
وأنه يرفض اجراء أي حوار مع الصحافة العالمية . .
حول التطبيع . . والمطبعين . . و«الهرولة . . والمهرولين!!

❋ ❋ ❋

اسمـحي لي يا سـيدتي أن ألامس قـفطان البروكـار الدمشـقي الذي
تلبسينه . .
حتى استعيد توازني النفسي . . والقومي فأنا لا أفهم . .
لماذا لا يطبع العرب مع العرب . . أولا؟
ولماذا . . يتقاتل التاريخ مع التاريخ؟
والقبيلة مع القبيلة؟

واللغة مع اللغة؟.

* * *

أريد أن أسأل.. لماذا في بلادنا.. تتقاتل الأفعال مع الأسماء..
والألف مع الياء
والحليب مع الأثداء.. وتقف النساء ضد حرية النساء؟؟

* * *

متى أتعلم الواقعية؟؟
أو ما فوق الواقعية وأركض مع الراكضين للحصول على شريحة لحم
من كتف الوطن؟
حيث الذبائح كثيرة والذابحون أكثر
وأنا أتطلع إلى المنسف الكبير ولا أتجرأ على مد أصابعي
لأن أمي - رحمها الله - ولدتني نباتيا يأكل حشيش الشعر..
وحشيش الحب.. وحشيش الأحلام..

* * *

لماذا..؟
لم أتعلم من السلاحف فضيلة الزحف؟
ومن أسماك القرش.. فضيلة الإنقضاض؟
ومن العلق.. فضيلة مص الدماء؟
ومن بعض الشعراء.. فضيلة الشحاذة؟
ومن المستبدين العرب فضيلة أكل شعوبهم؟؟

* * *

متى سأستقيل من المدرسة الرومانسية؟

التي بقيت فيها خمسين عاما.. بهلولا.. يتسلى بكتابة الشعر؟

ولم أحصل على صفقة واحدة..

أو على رشوة واحدة. أو على وزارة واحدة أو على فيللا واحدة أو على امرأة واحدة. تتزوجني لوجه الشعر. أو لوجه الأدب العربي

أو لوجه الانحطاط العربي؟؟

* * *

متى سوف أتوب عن الحب.. وعن الصراخ وعن الكتابة.

لا جواب عندي الآن لهذه الأسئلة المستحيلة

ولكنني سوف أجيبكم بعد موتي!!

* * *

هل تعرفين الآن يا سيدتي؟

لماذا أريد تطبيع علاقاتي العاطفية معك؟

لأنني أريد أن أحب امرأة عربية.. امرأة عربية واحدة.. لا تحمل على جسدها آثار التطبيع!!

* * *

وقد تعرض نزار لسهام جرأته وشجاعته في تشخيص الداء، ورفضه لكل ألوان المداهنة أو دفن رأسه في الرمال.

وقد دافع الناقد «د. ميشال جحا» عن نزار قباني فقال:

«الهجاء من فنون الشعر المعروفة عن العرب منذ الجاهلية حين كان بغالبيته يدور على الهجاء القبلي.

وكما أنهم قالوا هذا أصدق بيت وأكذب بيت أو أفخر بيت أو أمدح بيت قالته العرب كذلك قالوا هذا أهجى بيت قالته العرب. وفي العصر الأموي بات الهجاء ذا شأن هام، وخصوصا عند الأخطل وجرير الفرزدق فالمساجلات الهجائية التي جرت بينهم عرفت بـ «النقائض». وهكذا انتقل من هجاء القبيلة إلى الهجاء الشخصي والمقذع فالحطيئة هجا أمه، ولما لم يجد أحد يهجوه هجا نفسه وفي العصر العباسي تطور الهجاء وخاصة عند المتنبي الذي هجا العديدين وعلى رأسهم كافور الأخشيدي صاحب مصر

أما في عصرنا فقد فقد الهجاء رونقه وشهرته إذ من النادر أن نجد اليوم شاعرا ذا قيمة ينظم شعرا في هجاء شاعر آخر أو قبيلة من القبائل. ولكن فن الهجاء انتقل إلى هجاء الأمة بدلا من هجاء الفرد أو الخصم.

وإن هجاء الشاعر الكبير نزار قباني للأمة العربية هو من هذا القبيل. وهو لم يقدم على هجاء أمته لأنه هاو للشتائم، بل لأنه يرى أن الواقع الذي يعيشه بعض هذه الأمة هو واقع زريّ، وإن ما فعلته بها الهزائم يوشك أن يوصلاها إلى حالة من الاحتضار.

وليس هجاء الأمة العربية في العصر الحديث وقف على الشاعر نزار قباني، فهناك عدد كبير من الشعراء فعلوا ذلك: بدوي الجبل، محمد مهدي الجواهري، عمر أبو ريشة، خليل حاوي، أدونيس وسواهم.

وكذلك ليس من الضرورة أن يكون الهجاء وقفا على الشعر، فالنثر كذلك يستطيع أن يقوم بالواجب.

منذ ألف سنة أعلن المتنبي في قصيدة له هي آخر ما قاله في هجاء كافور:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم؟

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

وكم من «كافور» عندنا اليوم وإن لم يكن له سواد بشرته!

يقول جهاد فاضل في «الحوادث»:

«التجربة النزارية في الأساس، تجربة عاطفية لا تجربة قومية أو وطنية أو ثورية»

كيف يمكن أن نفصل بين تجارب الشاعر؟ إن تجربته في حب امرأة هي ذاتها في حب وطنه وأمته. وإن ثورته في شعر الغزل على التقاليد هي ذاتها على أمته المتخاذلة المستسلمة التي ترضي بالذل والهوان وتتنكر لتاريخها المجيد.

منذ أربعين سنة ثار نزار قباني في «طفولة نهد» «١٩٤٧» فوقف المتزمتون والمحافظون في وجه ثورته. حتى أن مجلة «الرسالة» االقاهرية بدلت حرف «الدال» من عنوان مجموعته الشعرية بحرف «الراء» فأصبح «طفولة نهر» لأنها وجدت فيه جرأة لا تطاق وثورة لا تتحملها.

يأخذ جهاد فاضل على نزار قباني أن هجاءه للعرب هو هجاء عن «حق وحقيق» وبعنف وغضب وعن سابق تصور وتصميم. وأنه ينعى الأمة العربية ويقرأ على روحها الفاتحة.

فهل أن انتقاد الأمة وحكامها وساساتها يعتبر تهجما على مقدساتها؟ وهل هو تدمير لروحها وتدنيس لشرفها؟ هل أن الشاعر هو المسؤول عن هزيمة هذه الأمة وهذا الشعب؟!

الشاعر هو ضمير الأمة. فإذا وجد أن أمته تسير في ضلال ومن هزيمة إلى أخرى فهل يبلع لسانه ويسكت؟ أم ينظم القصائد في مدحها؟! الشاعر صوت الشعب. وهو «السوط» الذي يستحثه على النهوض. هو البوصلة التي تصحح مسار الأمة وتهديها إلى الصراط المستقيم.

فإذا دعا الشاعر إلى الهدم فهذا لأنه الهدم الذي يسبق البناء فلا يصح أن تنعته بالمدمر والسادي والشعوبي.

نزار قباني ليس شعوبيا. فهو لا يريد الأذى للأمة العربية وهو لا يتآمر عليها ويكيد لها، بل أنه حريص على كرامتها وعزتها وشرفها.

هل يصح أن ننعت المتنبي - شاعر العرب الأول - بالشعوبية؟ وهو الذي هجا الأمة العربية هجاء لا أجد أعنف منه حين قال في نصف بيت من الشعر:

«يا أمة ضحكت من جهلها الأمم»

الشاعر صريح في ما يقوله، وهو لا يتستر ولا يلجأ إلى الرمز أو إلى التورية.

فلا يواري ولا يداور، بل يقول بالفم الملآن ما يعتقد أنه من واجبه أن يقوله، مادام مقتنعا به.

فلو أن الشاعر نظم قصائد المديح في الأمة العربية وجعلها فوق السماكين وعند سدرة المنتهى، فهل يعني ذلك أنه يستحث الهمم ويؤدي إلى التفاؤل ويحقق لها النصر؟ هل «يقبض» الشعب العربي من هذا الكلام؟ أم أنه يشتم الشاعر ويرجمه وينعته بالنفاق والكذب والخداع والمراوغة.

الشاعر يصور الواقع كما يراه، وليست وظيفته أن يجري عمليه تجميل لأمته ليخفى تجاعيدها وما أصابها من ترهل وتشويه.

من يحدد وظيفة الشاعر؟ من الذي يقول له ماذا يقول وكيف ينظم الشعر؟

ليس لأحد الحق في أن يقول للشاعر ماذا يفعل وكيف يدافع عن أمته ومتى يمدحها ويصفق لها ومتى يهجوها ويقسو عليها

الشاعر حر، همه أن يرضي ضميره وليس أن يرضي الناس. شرط أن يكون صادقا في ما يقول. إن يكون ما يقوله نابعا من قناعته ومن معاناته.

نحن نعيش في زمن «التلوث المادي» حتى الشعر بات أحيانا يفوح برائحة المال وليس برائحة الأرض والشيح والوزال. والأدب اصابته عدوى السياسة فتسيس وأخذ ينضح بالتبعية والطائفية والمذهبية والعمالة والسمسرة والارتزاق من أموال السفارات ومراكز الاستخبارات. وبتنا نخاف على الكلمة من أن تفقد شرفها وعفتها وقدسيتها وأصبحنا نفتش عن الكلمة التي لم تدنس ولم تبتذل ولم تخضع للارهاب الفكري الذي يمارس على الساحة العربية.

الشاعر يريد أن تتوافر لأمته عزة النفس والشجاعة والكرامة. يريد رفع الذل والهوان عن جبينها. يريد أن تأخذ مكانها تحت الشمس فلا تستسلم ولا تستكين.

يريد أن تكون فعلا لا قولا، خير أمة أخرجت للناس. يريد أن تواكب العصر. أن تعيش في القرن الواحد والعشرين. الإنسان يتطلع لسكنى الفضاء ونحن نسكن المقابر.

الإنسان يسبح في الفضاء الأعلى ويغزو النجوم وبعض الشعوب العربية تسبح فوق بحر من الثروات الهائلة، وتعيش في تخلف وفقر وجهل وحرمان. ألا يحق للشاعر بعد هذا كله أن يسأل لماذا؟ لماذا وصلنا إلى ما نحن فيه؟ لماذا يجب أن نسكت على ما نحن فيه؟ السكوت خيانة والشاعر لا يجوز أن يخون ذاته، وإن يخون أمته، فإذا آثر أن يصرخ فهل نقول عنه أنه منافق وعميل ومتآمر ومرتزق ومأجور وسمسار؟

الشاعر ليس منظرا أو باحثا اجتماعيا وانثروبولوجيا ليستخدم أسلوبا علميا في معالجة موضوعه فيجلس على طاولته يحلل أمراض الأمة العربية ويصف لها الدواء. هو ليس في ندوة علمية أو في جامعة أو معهد للدراسات العليا.

الشاعر ينفعل وهذا هو المهم. أما كيف يعبر عن انفعالاته فهذا شأنه هو. هذا حقه شرط أن يكون صادقا مع نفسه ومع الناس. فهل هو كذلك؟.

فعندما يقول الشاعر عن الأمة العربية أنها «أمة تبول على نفسها» وربما كان عليه أن لا يعمم:

من عهد فرعون إلى أيامنا
هناك دوما حاكم بأمره
وأمة تبول فوق نفسها كالماشية

فإنه في هذه الصورة الشعرية الجميلة - وإن تكن مقرفة تثير الاشمئزاز - يريد أن يصف لنا بعض الشعب العربي بأنه كقطيع الماشية يسير إلى الذبح على أيدي جلاديه، لا يعارض لا يصرخ وحتى لا يعترض على مصيره فيسير في تظاهرة.

ومنذ نيف وستين سنة قال أمين الريحاني عن هذا الشعب أنه شعب تائه قانع، يائس بائس، محوقل مستسلم، يدفع الخراج ويأكل الكرباج.

حتى لكأن الدم الذي يجري في عروقه هو «ماركوكروم» وليس دما أحمر، فالشاعر يرى أن هذه الأمة هي أمة اختلط فيها الحق بالباطل والحلال بالحرام. أمة كشاشي حمام فقدت ذاكرتها كما فقدت عقلها تذبح ليس على يد أعدائها وحسب بل على أيدي أبنائها وقادتها.

ماذا حدث في اليمن وفي السودان؟ وماذا عن تهريب «الفلاشا» وماذا جرى في لبنان؟ ماذا يحدث بين فصائل الثورة الفلسطينية؟ ماذا يحدث في العراق؟ وماذا عن الهجمة الشرسة عليه وعلى الأرض العربية المقدسة وأين العدالة في هذا الموقف؟ وأي حزب لم ينقسم إلى أحزاب ويصف قادته أو يصفوا هم بعضهم بعضا؟ أمة حروبها حوربة ومعاركها في الزواريب وبين الكواليس تفر من ساحات القتال. أمة كالهررة تأكل أبناءها أو في أحسن حال تتخلى عنهم فيهربون ويهاجرون

لم يقل أن الأمة العربية قد أصبحت جسدا ميتا، بل قال أنها جيفة لأنه أراد أن يضعنا في حالة من القرف والتقزز والاشمئزاز.

منذ زمن قال عنها الشاعر المهجري نسيب عريضة أنها قد يبست وليس تحيا الحطبة

الشاعر وصل إلى حافة اليأس. فقد الأمل في إحياء أمته ولم يبق له سوى أن يطفش لقد ترك أمته تتخبط في جهلها ورحل ولكن الشاعر مهما ابتعد فستبقى هموم أمته ملازمة له. فليس من السهل أن يخلع عنه عباءة العروبة وكوفيتها.

وإن قصائد مغضوب عليها قد نظمت في بيروت بين ٨٤ – ٨٥ وفي جينف ٨٥ – ٨٦ وهو يقول:

كل المنافي لا تبدد وحشتي
مادام منفاي الكبير . . بداخلي .

سلاح الشاعر الشعر. لا يملك السلاح ولا يملك الجيوش كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يكتب وهو يقول لنا لماذا يكتب:

حتى أنقذ العالم من أضراس هولاكو
ومن حكم الميليشيات
من جنون قائد العصابة.
وهو شجاع لا يخاف ولا يطلب العفو من أحد
ولست أنوي حذف بيت واحد كتبته إن جاء يوم الحشر
الشاعر نبع فمن يستطيع أن يمنع النبع من أن يتدفق؟
الشاعر بركان. فمن يستطيع أن يمنع بركان من أن يتفجر؟
يريد أن يكتب القصيدة الأعصار.

القصيدة الزلزال. يريد أن يحرك المستنقع الآسن. يريد أن يحتج على الحكم البوليسي والقمع الذي يمارس.. وهو يسأل هل سبق أن حوكم حاكم أو مسؤول.. على ما اقترفه بحق أمته وبلاده وشعبه من خيانة أو اخطاء أو سرقات أو فساد أو سمسرة أو هزيمة؟

هل كان الشعب العربي يعيش في جو من الحرية والديمقراطية والعدالة الكاملة؟ هل يستطيع الشاعر أن يكذب ويزور على الشعب العربي؟ هل يستطيع أن يغشه ويخدعه ويدغدغ آماله ويعلله بالسراب؟ أم أن من واجبه أن يضع المرآة أمام وجهه ونصب عينيه لينظر فيها ويرى حالته كما هي من دون مساحيق تجميل وظيفة الشعر في نظره هي:

أن يعلن العصيان
أن يسقط الطغاة والطغيان
أن يحدث الزلزال

أن يخلع التاج الذي يلبسه كسرى انوشروان

الشاعر صوت الحق. الشاعر صوت من لا صوت لهم.

لا يمنع أن يكون نزار قباني قد نظم الشعر في الحب والغزل والمرأة والقدود المياسة وطار بأرجوحة من ضفائر شعر محبوبته.

الشعر ابن العنفوان. والشاعر تطاول جبهته السماء. الشاعر لا يستجدي هو الذي يقول:

لا يبوس اليدين شعري.. وأحرى بالسلاطين أن يبوسوا يديه

الشاعر يرى أن واقع العالم العربي واقع مترد أنه يرى الإنسان العربي مسحوقا مداسا سعر القذيفة أغلى من سعره. يراه واقفا على الضوء الأحمر وإذا سار فبين الخطوط الحمر التي تؤدي إلى سجن ختم عليه بالشمع الأحمر يقول:

معتقلون.. داخل النص الذي يكتبه حكامنا

معتقلون.. داخل الحزن

وأحلى ما بنا أحزاننا

مراقبون نحن في المقهى.. وفي البيت.. وفي أرحام أمهاتنا.

حيث تلفتنا، وجدنا المخبر السري في انتظارنا

يشرب من قهوتنا.. ينام في فراشنا..

فهل نضع الشاعر في قمقم؟ هل هناك حبوب لمنع الشاعر من أن يقول ما يريد شبيهة بحبوب منع الحمل؟ هل على الشاعر أن يأخذ إذنا من الحاكم أو تصريحا من زعيم الميليشيات؟

الشاعر يري أن الأمة العربية أصيبت بمرض الايدز أي مرض فقدان المناعة - فكيف السبيل إلى خلاصها من الموت المحتم؟

وهو يرفض الواقع المنهار، يحمل المشعل لينير السبيل أمام شعبه. الشاعر الكبير مصلح كبير يداوي أمراض أمته يضع جسدها على طاولة التشريح ولا يوفر

استخدام المشرط إذا لزم الأمر.

والثورة عند الشاعر، ليست وقفا على حمل السلاح وقيادة التظاهرات والمسيرات ودخول المعتقلات والسجون الشاعر يقاوم بالكلمة، فهي سلاحه الامضى.

لاشك أن نزار قباني في مجموعته قصائد مغضوب عليها «منشورات نزار قباني، بيروت ١٩٨٦» يقسو على العرب كل العرب وهو يريد أن يجدد النسل العربي. يريد تغيير الدم العربي فيدعو إلى عملية نقل دم جديد إلى شرايين الأمة العربية.

هل أن الشاعر شاهد زور على أحداث أمته وعصره وشعبه؟

الشاعر يسأل أليس من الممكن أن يكون واقع الأمة العربية أفضل مما هو عليه؟ ونحن نقول معه حتما. ولكن لماذا هذا الواقع يزداد سوءا؟ من المسؤل؟ الشعب؟ أم الحكام؟ الجواب الاثنان معا أو ليس صحيحا أنه كما تكونون يولى عليكم؟

أية حضارة عندنا اليوم؟ وما هو المقدار الذي تسهم به الأمة العربية في قضايا العالم المصيرية: الفكرية والعلمية والسياسية والحضارية؟ أو لسنا مجموعة أصفار كبيرة أو صغيرة؟. أو لسنا عبئا على كل ما ينتجه الغرب؟ حتى السلاح الذي نشتريه منه بأغلى الاثمان وبعشرات مليارات الدولارات وندفع عليه فوق ذلك العمولات الضخمة ونصبح بسببه مرتهنين مدينين نستخدمه ضد شعوبنا وضد أخواننا نستخدمه لنقتل أنفسنا وليس عدونا أو ليس هذا هو الانتحار عينيه؟ فماذا تريد من شاعر أن يفعل بأمة تعاني من مرض الفصام وتريد بإصرار أن تنتحر؟ هل يصفق لها ويهلل؟ هل يدعها تفعل؟ أم أنه يهزأ منها ويسخر من جنونها ويترحم عليها فيقول في نهاية مجموعته الشعرية «رحم الله العرب!!!»

مهمة الشاعر التغيير تغيير الواقع الزري الذي تعيشه الأمة العربية وهو يرى أن المنطلق يكون ببناء الإنسان العربي فهو أهم رأس مال. هو ثورتها. وليست الثروة في الدولارات التي يهدر قسم كبير منها على النساء والراقصات والجواري والحانات ومرابع القمار واليخوت بينما لا تشتري سيفا لتحرير جنوب لبنان.

ماذا ينفع الإنسان العربي إذا خسر نفسه وربح كل دولارات العالم!

«الجنوب، في نظر الشاعر، هو نقطة الضوء في الدهليز الذي تزحف فيه الأمة العربية. هو خيط الأمل فالمقاومة في جنوب لبنان والبطولات التي يقدم عليها فريق من الشابات والشبان الذين يفجرون أجسادهم بجنود العدو الإسرائيلي وعملائه هي التي دفعته لنظم قصيدة السمفونية الجنوبية الخامسة في مدح المقاومة وأهل الجنوب ولتمجيد بطولة الفدائيين الذين يغسلون بدمائهم الطاهرة العار عن جبين الأمة العربية كل الأمة العربية في الجنوب حيث شتلة التبغ تشارك في القتال وفصائل النمل تساهم بتهريب السلاح للمقاومة وحيث الورود ترتدي أثواب القتال الجنوب هو سيد الاسياد وملحمة الملاحم.

وهكذا يتحول الشاعر من الهجاء إلى المديح، من كيل الشتائم واللعنات إلى كيل المديح، من كيل الشتائم واللعنات إلى كيل المدائح والبركات لأن الموقف يتطلب ذلك. وهكذا نجد أن الشاعر ليس هاويا للهجاء ولفضح العيوب والمثالب بل هو يكيل المديح وإنما للذين يستحقون هذا المديح.

ولكن أليس من حق الشاعر أن يغضب وأن يصرخ وقد اكتوى بنار الحرب المدمرة التي عاشها في بيروت؟ وبنار الغربة التي يقضيها منفيا في جنيف؟

أمة فشت فيها «الغرغرينا» وقلت فيها البطولة وكثرت فيها الأحزاب التي تتصارع وتتنازع على المكاسب وتأكل لحم أفرادها وتنهش بعضها بعضا.

ماذا لو أجرينا استفتاء من المحيط إلى الخليج حول واقعنا البائس هل تكون نتيجته لمصلحة كل الحكام والأحزاب والأنظمة الحاكمة؟

وبعد، الشاعر حزين مقهور متعب، نفد صبره وطفح كيل غضبه، فحار كيف يداوي أمراض أمته وجروحها، فكلما داوي جرحا سال جرح. وهو يرى أنها لا تشفى بوصفات الأطباء ولا بتمائم السحر والسحرة والشعوذة ولا بمقررات القمة العربية. لا خلاص لها إلا بالكي فهو آخر الطب. ولكن ليس الكي بالنار. بل بالشعر وهو في نظره أرقى درجات العشق الوطني.

نحن مع الشاعر. ويجب ألا نسيء الظن به ولا بالناقد. ولكن لا يجوز أن يتحول هجاء الأمة إلى هجاء شخصي بين الشاعر والناقد. أما «الأسماء المستعارة» فهي شيء معروف ومألوف عند الكتاب والشعراء في الشرق والغرب في القديم وفي الحديث عندنا الاخطل الصغير وبدوي الجبل والشاعر القروي وأدونيس وكثير غيرهم. ولا ضير في ذلك وليست الأسماء هي المهمة.

أما الضرر. كل الضرر فهو في الوجوه المستعارة المهم أن تضيء شمس الشعر ولو كسفت وجوه كل الزعماء.

وقد صور نزار قباني ملامح معاركه الشعرية على مدى خمسين عاما مع التخلف والجمود والسكينة والقهر، فقال :

«في المجتمعات المتخلفة، تأخذ المعركة بين الشرف العام والشرف الفني، شكل المذبحة، ولا يبقى أمام الشاعر سوى خيارين: أن يصبح حيوانا داجنا في المزرعة الجماعية: يأكل ويشرب، ويتناسل.. أو أن يخالف نظام المزرعة، فيخسر شرفه، ويربح شعره.

والحقيقة أنني لست نادما على الخروج من المزرعة، لأن نهاراتها متشابهة، ولياليها متشابهة، وأحاديث رجالها متشابهة، وفضائحها متشابهة.

«وقد اخترت الخروج، لأنني كنت أعرف أن البقاء في طروادة كان يعني زيادة نسبة الكولسترول في دمي ودم قصائدي».

* * *

وهكذا أصبح نزار خاصة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين هو شاعر الرفض والتمرد والدفاع عن الكيان العربي، والتاريخ العربي، وروح الحضارة العربية ضد كل مظاهر التخلف والاستغلال والجمود والقهر وضد كل قوى الاستعمار القديم والجديد، وظل شاعرا عربيا أصيلا يغني للحب والحرية والجمال.

قصيدة «المهرولون»

بعد نكسة يونيه «حزيران» ١٩٦٧ ومرحلة التردي العربي بعد اجتياح إسرائيل لبيروت وتخاذل الأنظمة العربية اتسع الخرق على الراقع وزادت حدة قصائد نزار قباني ضد الهوان العربي الذي أوصلنا إلى مرحلة الهرولة للتطبيع مع إسرائيل رغم استمرار احتلالها لبعض الأراضي العربية وممارستها الوحشية ضد الشعب الفلسطيني فسرى تيار الغضب والتمرد في شعر نزار، فأرسله قضائد نارية تهجو الواقع العربي، وتدين الهوان العربي، وتطالب بالتحرك والتغيير فكانت قصائد «تقرير سري من بلاد قمعستان ،والسيرة الذاتية لسياف عربي، وجريمة شرف أمام المحاكم العربية، وأنا يا صديقة متعب بعروبتي»

وجاءت قمة غضبه في قصيدته «المهرولون» و«متى يعلنون وفاة العرب» حيث هاجمته العديدمن الأقلام العربية حتى أن بعض الصحف العربية نشرت مقالا استفزازيا تحت عنوان «متى يعلنون وفاة نزار» ردا على قصيدته. واتهمه البعض بأن قصائده الأخيرة عبارة عن هجاء للواقع العربي يعد بمثابة حكم إعدام على الشعب العربي فكان رد نزار قباني:

«أنا أحمل سيخا من النار أكوى به جسد الأمة العربية.. إذا كان عندك مريض وتحبه وتريد أن تشفيه ويقولون لك ليس هناك وسيلة لشفائه سوى الكي، فأنت تلجأ إلى الكي.

«أنا من كثرة حبي لوطني لم أستطع أن أقف صامتا أمام هذه الغيبوبة الكبرى التي غرق فيها الشعب العربي ويغرق.. ما يهيجني أكثر من هوان هو هذا الموت اليومي، كأن الإنسان لم يبق له إلا هذا الرغيف الذي يقاتل من أجله.. الحياة ليست رغيف خبز «هل تعتبرون أن العرب أحياء؟ إذن فكيف نصف واقع أمة لا يستطيع خمسة من رؤسائها أن يجتمعوا في قمة عربية؟ كيف نسمي هذا؟ ماذا نسميه؟

«إذا كان البعض يصف أن موقفي تدميري، فأنا مع التدمير إلى إشعار آخر.

«يجب أن نضع قنبلة زمنية موقوتة تحت هذه الأرض ونفجرها.. أنا أنادي من زمان.. من أيام قصيدتي «هوامش على دفتر النكسة» أن الأطفال هم الأمل نحن كجيل منتهون، هناك أمل.. إذن أنا أنادي بالبذور الآتية، أوصى بأنه ليس هناك ظلام مستمر ولا عتمة أبدية، لابد أن تشرق الشمس لكن نحن أمام مشاكلنا، يجب ألا نكون جبناء.

ثم يشرح نزار قباني أسباب محنته مع الواقع العربي وكيف عبر عن ذلك في قصائده بعنف جارح وصراحة عارية أغضبت الكثيرين حتى أنهم اتهموه بالشعوبية فقال:

«في هذه الأرض الخراب التي نعيش عليها، ويقف عليها الشعر معنا، أعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يقطف وردة التفاؤل أو وردة الفرح، وإلا يكون كاذبا.

«أنا شاعر شديد الواقعية: في الخمسينات جاء عبد الناصر ليعطينا الأمل الكبير.. جاء البطل.. الشعوب دائما بانتظار البطل.. قد يكون عبد الناصر هو الثاني الذي جاء بعد صلاح الدين.. وقد جمع العرب تحت شعارات التحرر والبناء، وتأسيس الإنسان العربي، فتبعناه، ولكن بانهيار عبد الناصر بعد ١٩٦٧، بدأت الأرض المالحة، وبدأ الخراب الكبير.

«أنا في مأزق أمام خراب يحيط بي، يحيط بالسياسة ويحيط بالإنسان، ويحيط بالكتابة.

أنا لا أتصور أن مرحلة عربية مرت في تاريخنا بمثل هذه البشاعة، لذلك تجدني أصرخ ولا أستطيع أن أنظر بالنظارات الوردية، ولا أستطيع أن أكذب على الجماهير التي تثق بي، أنا لا أخدع أحدا.. أنا عرضت كل العاهات العربية، حتى عاهات الاعلام، وكان يجب أن تعرض لأن الصحف العربية مع الأسف صارت عبارة عن نسخة واحدة منقولة بورق الكاربون».

وقد أثار نزار في سنواته الأخيرة جدلا كبيرا في الأوساط الثقافية والفكرية العربية بقصائده النارية ضد عرب اليوم حتى اتهمه البعض بالشعوبية، فرد على هؤلاء بقوله:

«أنا كالمتنبي أنام ملء جفوني عن شواردها .. الذين يحبونني أشكرهم مرة والذين يكرهونني أشكرهم خمسين مرة والسبب أن الذين أشبعوني ضربا ولكما وعضا إنما فعلوا ذلك لأنني كسرت شيئا ما في ضمائرهم، وأضرمت النار في ثيابهم، وأفكارهم وعاداتهم القديمة».

كان نزار شاعرا عربيا أصيلا يعتز بعروبته وقوميته وأمجاده العربية العريقة، ولذلك كان حجم غضبه وتمرده على الواقع العربي المهين الذي كان يرى أنه وصل إلى حضيض الهوان حين هرولنا للتطبيع مع إسرائيل، فكانت صرخته النارية عن «المهرولون» تقول:

سقطت آخر جدران الحياء
وفرحنا . . ورقصنا
وتباركنا بتوقيع سلام الجبناء
لم يعد يرعبنا شيء
ولا يخجلنا شيء فقد يبست فينا عروق الكبرياء

* * *

سقطت للمرة الخمسين عذريتنا
دون أن نهتز . . أو نصرخ . .
أو يرعبنا مرأى الدماء . .
ودخلنا في زمن الهرولة .
ووقفنا بالطوابير، كأغنام أمام المقصلة
وركعنا . . ولهثنا . .

* * *

سقطت غرناطة . . .

للمرة الخمسين من أيدي العرب

سقطت كل مواويل البطولة

سقطت إشبيلية

سقطت أنطاكية

سقطت حطين من غير قتال

سقطت عمورية . .

سقطت مريم في أيدي الميلشيات

* * *

سقطت آخر محظياتنا

في يد الروم، فعن ماذا ندافع؟

فعن ماذا ندافع؟

* * *

بعد خمسين سنة

نجلس الآن، على أرض الخراب

مالنا مأوى

* * *

بعد خمسين سنة

ما وجدنا وطنا نسكنه إلا السراب

ليس صلحا، ذلك الصلح الذي أدخل الخنجر فينا

إنه فعل اغتصاب!

ما تفيد الهرولة؟!
ما تفيد الهرولة؟!
عندما يبقى ضمير الشعب حيا
كفتيل القنبلة. .
لن تساوي كل توقيعات «أوسلو»
خردلة!

* * *

كم حلمنا بسلام أخضر
وهلال أبيض. .
وببحر أزرق. . وقلوع مرسلة
ووجدنا فجأة أنفسنا. . في مزبلة!!

* * *

من ترى يسألهم عن سلام الجبناء؟
لا سلام الأقوياء القادرين
من ترى يسألهم عن سلام البيع بالتقسيط
والتأجير بالتقسيط. . والصفقات
والتجار. . والمستثمرين؟
من ترى يسألهم عن سلام الميتين
أسكتوا الشارع. . واغتالوا جميع الأسئلة
وجميع السائلين

* * *

وتزوجنا بلا حب
من الأنثى التي ذات يوم أكلت أفلاذنا
فضعفت أكبادنا
وأخذناها إلى شهر العسل
واستعدنا كل ما نحفظ من شعر الغزل
ثم أنجبنا لسوء الحظ، أولادا معاقين
لهم شكل الضفادع
وتشردنا على أرصفة الحزن
فلا من بلد نحضنه
أو من بلد

* * *

لم يكن في العرس رقص عربي
أو طعام عربي
أو غناء عربي
أو حياء عربي
فلقد غاب عن الزفة أولاد البلد

* * *

كان نصف المهر بالدولار
كان الخاتم الماس بالدولار
كانت أجرة المأذون بالدولار
والكعكة كانت هبة من أمريكا

وغطاس العرس، والأزهار والشمع
وموسيقى المارينز
كلها قد صنعت في أمريكا

* * *

وانتهى العرس
ولم تحضر فلسطين الفرح
بل رأت صورتها مبثوثة عبر كل الأقنية
ورأت دمعتها تعبر أمواج المحيط
نحو شيكاغو وجيرسي وميامي
وهي مثل الطائر المذبوح تصرخ:
ليس هذا العرس عرسي
ليس هذا الثوب ثوبي
ليس هذا العار عاري
أبدا يا أمريكا
أبدا يا أمريكا.. أبدا يا أمريكا»!

وأثر نشر قصيدة «المهرولون» نشبت مساجلات صحفية عنيفة بين نزار من ناحية وبين عدة كتاب وأدباء عرب من ناحية أخرى أشهرها تلك المساجلة التي جرت بين نزار والكاتب الكبير نجيب محفوظ حيث قال نجيب محفوظ:

«إن نزار قباني مخلص في موقفه. ولا يقول هذا الكلام تزييفا، إنه رأيه، وهو مقتنع به، وله كل الحق في ذلك، وهناك من يؤيدون هذا الرأي في كل البلاد العربية، ومن يرفضون السلام على طول الخط حتى إذا حققنا منه مكسبا، وهذا حقهم.

وحين سئل عن قصيدة نزار أجاب محفوظ:

«لقد أعجبتني رغم اختلافي السياسي معها.. إنني لا أنفي إعجابي بها، ومن يشارك نزار قباني موقفه، سيجد فيها تعبيرا قويا عن هذا الموقف، ولكنه موقف يبدو أضعف من القصيدة بكثير، قصيدة قوية وموقف ضعيف!

لا يوجد سلام بغير تفاوض، ومادام خيار الحرب غير وارد فلا مبرر لهذا الهجوم على المفاوضين العرب الواقعيين والعمليين.

إنهم يريدون الوصول إلى حل، ولو كان بإمكانهم الحصول على ما هو أفضل مما أتوا به، ما كانوا قد فرطوا، إنهم يفاوضون في ظروف صعبة، وموقفهم في المفاوضات انعكاس للوضع العربي العام.

من أين نأتي بوضع عربي أفضل الآن وليس في مصلحتنا التوقف، لأن الطرف الآخر لنا ينتظر، فلسنا في مباراة للكرة حتى نحصل على استراحة، ثم نعاود اللعب من جديد،فإذا أخذنا استراحة، سيباغتنا الطرف الآخر بتسجيل أهداف في مرمانا قل في السادات ما شئت، لكنه أخذ المبادرة واستعاد الأرض العربية المحتلة، ورفع علم فلسطين في مواجهة إسرائيل، وكانت الشروط المطروحة على الفلسطينيين آنذاك أفضل منها الآن عشر مرات، فقد قبلت إسرائيل وقتها الحكم الذاتي إلى جانب إعادة سيناء إلى مصر»

وقد أثار رد الكاتب الكبير نجيب محفوظ غضب نزار ورد عليه قائلا:

«الأستاذ نجيب محفوظ إنسان رقيق كنسمة الصيف، وحريري في صياغة كلماته، ورسولي في سلوكه على الورق، وسلوكه في الحياة إنه رجل اللاعنف الذي يمسك العصا من وسطها.. ولا يسمح لنفسه بأن يجرح حمامة أو يدوس نملة أو يغامر.. أو يسافر.. أو يغادر زاويته التاريخية في حي الحسين هو رجل السلام والسلامة.. هذا الموقف السكوتي الكلاسيكي في طبيعة أستاذنا الكبير هو الذي جعله ينتفض كعصفور عندما قرأ قصيدتي «المهرولون» فهو لم يتعود خلال تاريخه الطويل، على قراءة القصائد المجنونة التي تفرش عباءتها على الأرض.. وتصرخ

كالقطط المتوحشة في ليل الانحطاط العربي.. غير مكترثة بالفضيحة، وبما يقول الناس عن ظهورها في الشارع عارية.. أو نصف عارية.

فليعذرني عميد الرواية العربية، إذا جرحت عذريته الثقافية وكسرت عاداته اليومية، وقلبت فنجان القهوة عن الطاولة التي يجلس عليها مع أصدقائه، فالقصيدة ليس لها عادات يومية تحكمها.. أو نظام روتيني تخضع له..

إنها امرأة عصبية وشرسة.. تقول ما تريده بأظافرها.. وأسنانها.

القصيدة ذئب متحفز ليلا ونهارا، ومواجهة بالسلاح الأبيض مع اللصوص.. والمرتزقة.. وقراصنة السياسة.. أستاذنا نجيب محفوظ قمة روائية لا يجادل فيها أحد، ولكن نظرته إلى الشعر نظرة ساذجة، وملتبسة، وتحتاج بعض التصحيح.

ففي تعليقه على قصيدتي، خلط الروائي خلطا عجيبا بين الشعري والسياسي، بين القصيدة وبين الموقف.. فامتدح القصيدة، جماليا وهجاها إيديولوجيا.. إنني لا أناقش الأستاذ نجيب محفوظ في عقيدته وقناعاته السياسية، ولكنني أقول له: إن الشعر دولة ليبرالية، لا سلطان فيها إلا للجمال، والعدالة والحرية، وليس من وظيفة للشعر سوى أن يكون شعرا.. وأن يكون صادقا مع الناس ومع نفسه.. ومع الحقيقة.

هذا هو موقف الشعر مما يجري على المسرح العربي فإذا كان الأستاذ نجيب محفوظ يرى موقفي «ضعيفاً».. ويطالبني بأن أصفق لمسرحية اللامعقول التي يعرضونها علينا بقوة السلاح، وقوة الدولار، فإنني أعتذر عن هذه المهمة المستحيلة ربما كنت في قصيدتي حادا، وجارحا، ومتوحش الكلمات.. وربما جرحت عذرية كاتبنا الكبير وكسرت زجاج نفسه الشفافة.

ولكني ماذا أفعل، إذا كان قدره أن يكون من «حزب الحمائم» وقدري أن أكون من «حزب الصقور»؟

ماذا أفعل إذا كان أستاذنا نجيب محفوظ مصنوعا من القطيفة.. وكنت مصنوعا من النار والبارود؟

ماذا إذا كانت الرواية عنده جلسة ثقافية هادئة في «مقهى الفيشاوي» وكانت

القصيدة عندي، هجمة انتحارية على القبح والانحطاط والظلام، والتلوث السياسي والفوضى؟ ربما كان الخطاب الروائي يختلف في طبيعته وأدواته وتقنيته عن الخطاب الشعري، فالروائي يجمع عناصر روايته، ويرتبها، ويدرس سيكولوجية أبطاله أما الشاعر فهو يشتغل بمادة سريعة الانفجار، لا يمكنه أن يؤجل التعامل معها إلى فترات طويلة، وإلا انفجرت بين يديه.

الشعر برق لا عمر له

أما الرواية فورشة تفتح أبوابها لمدة ٢٤ ساعة ولأن الشعر يتصرف بطفولة وتلقائية، لا يمكننا أن نطلب منه أن يكون حكيما، أو واعظا، أو خطيبا، أو معلم مدرسة.

ليس من وظيفة القصيدة أن تقترح الحلول، وتجد البدائل، وتكتب الروشتات للمرضى والمعاقين.

ثم يستطرد الشاعر الكبير نزار قباني قائلا:

«كان الأستاذ نجيب محفوظ معجبا بعبقرية أنور السادات، ومقتنعا بكراماته ونبوءاته، ورؤيته الرسولية للمستقبل لذلك، فإنني اعتبر تعليقه على قصيدتي نوعا من «عودة الروح» لعصر السادات، وفكره ونهجه السياسي وعلى ضوء ما تقدم، فإن المسافة الايديولوجية التي تفصلني عن الأستاذ نجيب محفوظ لا يمكن ردمها «فهو تلميذ المدرسة الساداتية» التي كانت تريد نصرا سينمائيا وتليفزيونيا واستعراضيا، ولو كان هذا النصر على حساب تاريخ مصر العربي، وبطولات الجيش المصري الخرافية في حرب أكتوبر وأنا تلميذ «المدرسة الناصرية» بكل عنفوانها.. وجنونها واقتحاماتها القومية.. وانتصاراتها.. وهزائمها.. وأعراسها.. وأحزانها.. أنهما موقفان منفرجان ونقطتان لا تلتقيان أبداً.

فأصابع الأستاذ نجيب محفوظ منقوعة في الماء وأصابعي تتقلب فوق النار.. ولكنني لا أصرخ

لا يمكنني كشاعر أن أكون ضد السلام فالشاعر بطبيعة تكوينه النفسي والفكري والإنساني عضو مؤسس في حزب السلام، إذ لا شعر يكتب في ظل الموت، والإبادة، والخراب ولكن ما يطرحونه علينا ليس سلاما ما يعرضونه علينا يأخذ ما فوقنا وما تحتنا ويتركنا على الحصيرة.. فالمستعمرات في خاصرتنا والمنفيون في منافيهم.. والخليل مؤجلة والقدس مؤجلة وحريتنا وأعمارنا وأحلامنا كلها مؤجلة فماذا بقى لنا من فلسطين في ظل هذا السلام البائس؟

إذا كان أنبياؤنا ممنوعين من قراءة كتبهم المقدسة؟ وفلاحونا ممنوعين من الاقتراب من شجرة برتقال على أرض فلسطين كانوا زرعوها قبل خمسين عاما

ماذا بقى لنا من فلسطين؟

ويختتم نزار تعليقه على موقف نجيب موحفوظ، فيقول:

«إن إسرائيل غير مبتهجة أساسا لمشروع سلام مع العرب إلا بشروطها هي.. وضمن مشروعها التوراتي القائم على «إسرائيل الكبرى» تبتلع فيه كل غصن أخضر من النيل إلى الفرات وأريد أن أذكر كاتبنا الكبير أن إسرائيل غير سعيدة بصلحها مع مصر وهي نادمة كثيرا على إعادة سيناء إلى السيادة المصرية، لأن معدة إسرائيل لم تتعود على إرجاع أي طعام دخل فيها،.. ولذلك فهي تسمى سلامها مع مصر «سلاما باردا»

فشكر للرئيس العظيم جمال عبد الناصر الذي زرع في جسد الشعب المصري هذه المناعة القومية النادرة وبعد، فشكرا للأستاذ الروائي الكبير نجيب محفوظ الذي قرأ قصيدتي «المهرولون» فأعجبته شعريا.. ولم تعجبه إيديولوجيا.. وموقفا.

وإذا كان الخطاب الشعري قد هز أعماقه، فهذا دليل على أن حساسيته الشعرية لاتزال بخير.. وقلبه الكبير لايزال يفرح بالتماع البروق، وسقوط الأمطار، أما مواقفنا الايديولوجية المتصادمة في قضية السلام فهي بسيطة وهامشية ولا تفسد للود قضية.

هو له رؤيته وإجتهاده، وأنا لي رؤيتي واجتهادي، هو على يقين بأن الرواية حقيقية وأنا على يقين بأن الرواية نوع من الفنتازيا السياسية التي لا تستهوي أحدا .. برغم ضخامة التمويل.. وكثرة الاعلانات.. ووجاهة المدعوين إلى حديقة البيت الأبيض».

متى يُعلنونَ وفاةَ العَربْ ؟!

كان نزار قباني يرى أن مهمة الشاعر هي أن يفتت كل الأشياء والأفكار والقناعات والأوهام التي أخذت شكل الحجر.. مهمته أيضا أن يفتت اللغة التي كانت جامدة من وجهة النظر هذه، اعتبر نفسه شاعرا عدوانيا.. وفي نفس الوقت كان شاعرا نرجسيا.. ويفسر ذلك بقوله: (١)

«النرجسية هي عطري الجميل الذي لا أستغنى عنه، مثلما المرأة لا تستغني عن مشطها، وكحلها، وأساورها.. أنا بدون نرجسيتي وردة بلا رائحة.. وامرأة بلا أنوثة

أما مجدي فلا أخاف عليه، لأنه محفور في وجدان مئتي مليون عربي مبثوث على كل الموجات القصيرة والمتوسطة والـ (أف. أم) إنني على مسرح الشعر منذ خمسين عاما، ولاتزال الصالة ملأى، والعرض مستمرا، فمن أخاف؟ وعلى أي شيء أخاف؟ وزيادة في النرجسية أقول إن مئات الخيول تركض هذه الأيام على ملعب الشعر.. ولكنني لا أجد حتى الآن، حصانا استطاع أن يتجاوز سرعتي، أو يعلو صهيله على صهيلي»

وفي منفاه الاختياري في لندن كان نزار يرقب عن كثب الوضع العربي المأساوي حيث كان يرى أنه شاعر محكوم بعمليات الحزن العربي.. بالانهيارات العربية، وحين طلب إليه العودة إلى وطنه العربي.. رفض قائلا:

«أنا لا أعود إلى الوطن العربي لأعود إلى المأساة.. المأساة أحملها معي.. فالعربي حيث كان، يحمل جرحه، إن كان تاجرا أو طالبا أو رجل أعمال، يحمل جرحه ويطيب له أن يأتي شاعر ويغني له مأساته القومية كما حدث معي في لندن أو في باريس

إذن نحن ندور في حمأة التراجيديا العربية، أو مامن أحد يستطيع تجاوز نفسه»

وفي لندن سنة ١٩٩٤ كتب أحد أبرز قصائده الحادة الصارخة الغاضبة على الوضع العربي المتردي حتى أطلق عليها «متى يعلنون وفاة العرب» قال فيها:

أحاول منذ الطفولة رسم بلادٍ
تُسَمّى مجازا «بلاد العربْ»
تُسامحني إن كسرتُ زجُاجَ القَمَرْ
وتشكرني إن كتبتُ قصيدة حُبٍّ
وتسمح لي أن أمارس فعل الهوى
ككل العصافير فوق الشجر
أحاول رسم بلاد
تُعلِّمني أن أكون على مستوى العشق دوما
فأفرشَ تحتكِ صيفاً، عباءة حُبّي
وأعصر ثوبك عند هطول المطْر

* * *

أحاول رسم بلاد لها برلمان من الياسمين
وشعب رقيق من الياسمين
تنام حمائمها فوق رأسي
وتبكي مآذنها في عيوني
أحاول رسم بلاد تكون صديقة شعري
ولا تتدخل بيني وبين ظنوني
ولا يتجول فيها العساكر فوق جبيني
أحاول رسم بلاد
تكافئني إن كتبت قصيدة شعر
وتصفحُ عني إن فاض نهرُ جُنوني

أحاول رُسْمَ مدينة حُبٍّ
تكونُ مُحّررةً من جميع العُقَد
فلا يذبحون الأنوثة فيها
ولا يقمعون الجسَدْ!

❋ ❋ ❋

رحلتُ جُنوبا.. رحلتُ شمالا.. ولا فائده
فقهوةُ كلِّ المقاهي لها نكهة واحده
وكلُّ النساءِ لهُنَّ إذا ما تعرَّينَ - رائحةٌ واحده!!..
وكلُّ رجالَ القبيلة لا يمضغُون الطعامْ
ويلتهمُون النساءَ بثانيةٍ واحدهْ!

❋ ❋ ❋

أحاولُ منذُ البدايات
أن لا أكون شبيهاً بأي أحَدْ
رفضتُ الكلامَ المعلّبَ دوماً
رفضتُ عبادة أيِّ وثنْ
فبعض القصائد قبرٌ.. وبعض اللغات كفنْ
وواعدتُ آخر أنثى..
ولكنني جئتُ بعد مرور الزمَنْ...

❋ ❋ ❋

أحاولُ أن أتبَّرأَ من مُفرداتي
ومن لعنة المبتدا والخبرْ
وأنفُضَ عنّي غُباري
وأغسل وجهي بماء المطرْ
أحاولُ من سلطة الرمل أن أستقيلْ
وداعاً قُريشٌ.. وداعاً كُليبٌ.. وداعاً مُضَرْ

* * *

أحاول رسْمَ بلاد.. تُسمَّى مجازا بلاد العَربْ»
سريري بها ثابتٌ.. ورأسي بها ثابتٌ
لكي أعرف الفرق بين البلاد وبين السفُنْ
ولكنهم أخذوا عُلبة الرسْم منّي
ولم يسمحوا ليْ بتصوير وجه الوطنْ

* * *

أحاولُ منذ الطفولة فتح فضاءٍ من الياسمينْ
وأسَّستُ أول فندق حُبٍّ.. بتاريخ كُلِّ العربْ
ليستقبل العاشقينْ
وألغيتُ كلَّ الحروب القديمةِ
بين الرجال.. وبين النساءْ
وبين الحمامِ.. وبين من يذبحون الحمَامْ
وبين الرَخام.. ومن يجرحون بياضَ الرخَامْ

ولكنهم أغلقُوا فُندُقي
وقالوا بأنَّ الهوى لا يليقُ بماضي العربْ
وطُهْر العربْ.. وإرث العربْ
فياللعَجبْ!!

* * *

أحاول أن أتصوَّر ما هو شكْلُ الوطنْ؟
أحاولُ أن أستعيدَ مكاني في بطن أُمّي
وأسبحُ ضدَّ مياه الزَمنْ
وأسرق تينا، ولوزاً، وخوخاً
وأركض مثل العصافير خلف السفُنْ
أحاولُ أن أتخيَّل جنَّة عَدْن
وكيف سأقضي الإجازة بين نُهور العقيقِ
وبين نُهُور اللّبْن
وحين أفقتُ اكتشفتُ هشاشة حُلْمي
فلا قمرٌ في سماء أريحا
ولا سمك في مياه الفراتْ
ولا قهوةٌ في عَدَنْ

* * *

أحاولُ بالشِّعْر.. أن أُمسكَ المُستحيلْ

وأزرع نخلاً.. ولكنّهمُ في بلادي
يقصُّونَ شَعْرَ النخيلْ
أحاولُ أن أجعل الخيل أعلى صهيلاً
ولكنَّ أهل المدينة.. يحتقرون الصهيلْ!!

* * *

أحاولُ - سيدتي - أن أُحبَّكِ
خارج كُلِّ الطقوسْ.. وخارج كل النُصُوصْ..
وخارج كُلِّ الأنظمةْ..
أحاولُ، سيدتي، أن أحبَّكِ.. في أي مَنْفى ذهبتُ إليهْ
لأشعر، حينَ أضُمُّكِ يوماً لصَدْري؛ بأني أضم تُرُابَ الوطَنْ..

* * *

أحاول، مذ كنتُ طفلا، قراءة أي كتاب
تحدث عن أنبياء العرب.. وعن حلماء العرب
وعن شعراء العرب
فلم أر إلا قصائد تلحس رجل الخليفة
من أجل حفنة رز.. وخمسين درهم..
فياللعجب..
ولم أر إلا قبائل
ليست تفرق ما بين النساء
وبين الرطب.. فياللعجب!

وأي عقيد على جثة الشعب يمشي
وأي مراب يكدس في راحتيه الذهب
فياللعجب..

* * *

أنا منذ خمسين عاما.. أراقب حال العرب
وهم يرعدون.. ولا يمطرون..
وهم يدخلون الحروب.. ولا يخرجون
وهم يعلكون جلود البلاغة علكا.. ولا يهضمون
وهم يستلمون البريد الثقافي كل صباح
ولكنهم لا يجيدون فك الحروف.. ولا يقرأون
وهم يخزنون البلايين في بطنهم..
ولكنهم، دائما يشحذون!!

* * *

أنا منذ خمسين عاما..
أحاول رسم بلاد تسمى مجازا «بلاد العرب»
رسمت بلون الشرايين حينا
وحينا رسمت بلون الغضب
وحين انتهى الرسم، ساءلت نفسي:
إذا أعلنوا ذات يوم وفاة العرب..
ففي أي مقبرة يدفنون؟

ومن سوف يبكي عليهم؟
وليس لديهم بنات.. وليس لديهم بنون..
وليس هنالك حزن..
وليس هنالك من يحزنون!!

* * *

أحاول منذ بدأت كتابة شعري
قياس المسافة بيني، وبين جدودي العرب
رأيت جيوشا.. ولا من جيوش
رأيت فتوحا.. ولا من فتوح
وتابعت كل الحروب على شاشة التلفزة
فقتلى على شاشة التلفزة
وجرحى على شاشة التلفزة
ونصر من الله يأتي إلينا
على شاشة التلفزة!!

* * *

أيا وطني..
جعلوك مسلسل رعب..
نتابع أحداثه في المساء
فكيف نراك إذا قطعوا الكهرباء؟!

* * *

أنا بعد خمسين عاما
أحاول تسجيل ما قد رأيت
رأيت شعوبا تظن بأن رجال المباحث
أمر من الله
مثل الصداع.. ومثل الزكام.. ومثل الجرب
رأيت العروبة معروضة
في مزاد الأثاث القديم..
ولكنني ما رأيت العرب!

وفور نشر هذه القصيدة أثارت ضجة واسعة بين أوساط أصحاب الأقلام ورجال السياسة والفكر في الوطن العربي ما بين مؤيد ومعارض حتى أن مجلة «الأهرام العربي» في عددها الأول الصادر في فبراير ١٩٩٧ كان غلافها يحمل صورة ملونة لنزار قباني وتحتها هذا المانشيت «متى يعلنون وفاة نزار قباني؟» على نسق عنوان قصيدته الصارخة!

وقد كان المناضل القومي عبد الهادي البكار يراسله في ذلك الحين فبعث إليه من منفاه الاختياري في لندن يرد فيها على ذلك الهجوم غير المبرر فيقول:

«أنا في منفاي اللندني لا أتكلم إلا مع البط.. والسنجاب الرمادي.. لأنني بعد خمسين عاما من الكتابة، أصبحت عندي مناعة ضد كل أنواع الذباب الإفريقي وما أروع قولك «فنزار منذ سنين في حماية التاريخ»

ولقد حققت حلمي الطفولي بكامله، ودخلت إلى بيوت العرب بلااستئذان.. من الماء إلى الماء.. وحملت لأولادهم الحلوى بالعسل والقشطة.. ولذلك لن يأخذ «أي هلفوت» مني شيئا بعد اليوم».

(١) كان تاريخ الرسالة ٢٤ / ٤ / ١٩٩٧ .

ومن ذيول هذه المعركة الصحفية الساخنة أجرت الصحفية «لينا مظلوم» حوارا صحفيا مع نزار في إثر غبار تلك المعركة الساخنة بين نزار ونجيب محفوظ وكانت إجابته حول سؤال عن تقلص مساحة المبدع ومحاولة إطفاء بصيص الأمل أمام حرية الفكر يقول: (١)

«ليست مساحة الحرية وحدها هي التي تتقلص في هذا الزمن الضيق، فالسماء تتقلص، والقمر يتقلص.. والحب يتقلص.. والشعر والثقافة والإبداع، والعلاقات الإنسانية، والتاريخ، وكرامة الإنسان جميعها تتقلص..

هكذا نحن دائما.. فما هو وجع الاستغراب إذا رأينا أن الديمقراطية في حياتنا تتقلص؟ فالرجل يطلق زوجته عندنا بالثلاثة.. كما يأكل ساندويتشه.. دون أن يحتاج إلى حكم محكمة.. لا أعتقد أن الحالات التي تذوق فيها المجتمع العربي طعم الحرية كانت طويلة، إنها لا تتجاوز أسابيع أو أعواما.. وفي رأيي أن القمع في حياتنا كان هو الأساس.. أما حرية الرأي فهو الاستثناء.

لذلك فأنا لا أرى أن المشهد الحالي يختلف كثيرا عن المشاهد التراجيدية التي مرت في تاريخنا، ففيلم القمع الفكري، والديني، والثقافي فيلم طويل.. ولا أتصور أن صناعة سينما الرعب سوف تتوقف في تاريخنا في الزمن المنظور.

.. وكم من إمام ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء فتاريخنا كله محنة.. وأيامنا كلها كربلاء»

وعندما سئل نزار: «تساءلت متى يعلنون وفاة العرب» هل وصلت درجة التشاؤم بنا إلى القول «متى يعلنون وفاة الفكر والإبداع والحب»؟

فكان رد نزار: «عندما يموت العرب» سياسيا فمن الطبيعي أن يموتوا فكريا، وإبداعيا، وشعريا.. وعاطفيا.. فالموت وحدة متكاملة.. وليس هناك موت بالتقسيط أو بالقطاعي.

إن الفكر، والشعر، والحب، والإبداع، هي ورود لا يمكن أن تتفتح في مستنقع،

---

(١) روز اليوسيف ١٣ نوفمبر ١٩٩٧ .

وتنمو في مناخ القهر، والاستبداد، في مجتمع من العبيد.. أو عن مسرحية تقدمية في مناخ من التخلف.. أو عن أغنية جميلة في إطار من التلوث.. أو علاقة حب ناجحة في مجتمعات أهل الكهف.

أما الشعر فهو سمكة دولفين لا يمكنها أن تسبح في مياه تتكاثر فيه التماسيح، والقراصنة، والألغام.

إن القصيدة العربية في زمن الإحباط والقنوط والتراجعات، تسافر ضد التيار، وتقوم بمهمة انتحارية.

وأتصور أنه ليس أمام الشاعر من خيار آخر.. سوى أن يعمل طباخا في قصر السلطان.. أو أن يموت على أوراقه..

ثم يقول نزار ردا على سؤال حول رسالته الشعرية ودلالاتها:

«أنا أكتب عن الحرية.. ولست مسئولا عن سوء استعمالها.وأكتب عن العشق ولست مسئولا عن جنون العاشقين.. وأكتب عن السياسة، ولست مسئولا عن جهل السياسيين وحماقاتهم أكتب عن كل ما يخطر ببالي بطفولة، ولا أبرمج دقات قلبي.. لا توجد كتابة خارج الطفولة، فالطفل هو الكائن الوحيد الذي يستطيع بأحلامه أن يغير العالم..

كل المبدعين الكبار كانوا أطفالا، ولعبوا دوراً كبيرا في تغيير العالم روحيا وجماليا، وثقافيا، وحضاريا، دون أن يكون لديهم برنامج أو مخطط سابق.

وبالنسبة لي، فإن كل ما كتبته خلال خمسين عاما عن المرأة، والوطن كان كلاما طفوليا، فالطفل لا يعرف الكذب، ولا الغش، ولا الالتفاف حول الكلمات.. ولا يقسم العبارة إلى نصفين.. والحقيقة إلى نصفين.. ولهذا السبب استطعت أن أدخل ملايين البيوت العربية لأنني كتبت كطفل، وتصرفت كطفل، والعرب قوم يحبون الأطفال.

«قد تكون قصائدي غيرت شيئا في بنية المجتمع العربي، وفي نسيجه، وقد تكون ساعدت المرأة في التخلص من ضعفها، ودونيتها، وديكاتاتورية ذكور القبيلة.

ولكنني لم أكن أبرمج مشاعري وأحلامي.. بل كنت أغني للحرية والوطن..

كما يغني أي عصفور في البرية

وحول ما ذكره من أنه تلميذ المدرسة الناصرية بكل عنفوانها وجنونها واقتحاماتها القومية، وانتصاراتها وهزائمها وأعراسها وكيف يرسم لنا الخط الفاصل بين الجمود الفكري السياسي، والانتماء إلى فكر قومي ومبادئ أرستها ثورة امتد تأثيرها إلى مختلف دول العالم فكانت إجابته:

إن الخط شديد الوضوح، بين حالة الاشتعال القومي.. وبين حالة الانطفاء القومي.. بين حالة الكبرياء.. وبين حالة المذلة فعبد الناصر كان «حالة كبرياء» في التاريخ العربي.. ثم دخلنا بعده في مرحلة التناثر، والتفكك، والهوان.. أما على صعيد الإبداع، فقد شهدت المرحلة الناصرية، تفجرا وخصوبة في كل الحقول الشعرية، والروائية، والمسرحية، والشكيلية.. وبعد هذه الفترة الذهبية.. صارت الأرض مالحة.. والينابيع عطشى.

وعن دور الشعر والحب في هذا العصر المادي يقول:

«الشعراء كانوا دائما صفارات إنذار تطلب من الناس أن يكانوا الغزاة، والطغاة، والطاعون.

«ولكن أصوات الشعراء الرقيقة لا تستطيع أن تقف في وجه الثيران المتوحشة، كما أن الوردة لا تستطيع أن تقاوم وحيد القرن.

«الشعر كجدول الماء الذي يحفر الصخرة ببطء.. ولكنه قادر مع الزمن على تغيير وجدان الأمة، وخرائط التاريخ .. ولأن الشعراء جزء لا يتجزأ من النفس العربية، وقطعة من ميراثها القومي والنضالي، فإنني مؤمن بأن كل قصيدة عربية شجاعة تستطيع أن تكون إصبع ديناميت.. وقنديلا يضيء في ليل جاهليتنا الثانية

ولن يستطيع الدولار، أو المارك، أو الين، أو الاسترليني، أو أية عملة من العملات أن تشتري شاعرا يحترم نفسه، أو قصيدة واحدة تريد أن تبيع جسدها».

ومن مصادفات القدر أن يرحل نزار بعد هذه المعركة الصحفية بعام واحد وفي نفس الشهر «أبريل» ويكشف لنا صديقه المناضل عبد الهادي البكار بعض جوانب

هذه المعركة الأخيرة لنزار في مقالة له إثر رحيل نزار تحت عنوان «متى يعلنون حياة نزار قباني» يقول فيه:

«كنت أرسلت إلى نزار عبر البريد، بذلك العدد من هذه المجلة عقب صدوره، وفور إطلاعه عليه بعث إليّ برسالة مؤرخة في ٢٤ أبريل ١٩٩٧ أكد لي فيها عدم اكتراثه بكل ما يقال وينشر عنه من أقوال ومقالات ناقدة، وأنه بات محصنا لكن مسحة من الحزن النبيل، كانت تكسو سطوره، كساء الشغاف لعضلة القلب.

وحين أسدل نزار من بعد ذلك بعام، جفنيه، مغادرا البرزخ الفاصل بين الحضور والسفر إلى الأبد إلى ما وراء الموت وهذا الوراء هو خلود مجده الباقي في العالم العربي إلى مالا نهاية.. تحققت الإجابة المطلوبة على السؤال الذابح كسكين فصلتها من السطور المنشورة «متى يعلنون وفاة نزار قباني»؟

ويختتم المناضل القومي عبد الهادي البكار رثاء صديقه نزار بقوله: (١)

«أما بعد.. فإن الصديق الثمين الفاخر الجسور، الرقيق الغالي نزار قباني، قد توفي، وأعلن خبر وفاته صباح الخميس ٣٠ أبريل ١٩٩٨، فهل تنهض الأمة الهاجعة التي حضها على أن تصحو وتستيقظ، وحرضها على استعادة قواها ووحدتها وكرامتها الغائبة»؟.

***

(١) مجلة روز اليوسف ٤ مايو ١٩٩٨ .

إلى أين يذهب موتى الوطن ؟!

في أواخر عام ١٩٩٦ سقط الأسانسير بنزار قباني في البناية التي يقطن بها في لندن، وكان فيه وحيدا، فتكسرت عظام حوضه، وأخضع إلى عملية جراحية نزعت عظام الحرقف خلالها بنسبة ٧٥ ٪ وزرعت مكانها عظام اصطناعية بلاسيتكية بديلة.

وبخروجه من المستشفى، بدأ يستعين بعكاز كلما نهض وكلما حاول السير.

ويكشف صديقه عبد الهادي البكار أسرار السنوات الأخيرة في حياة نزار، فيقول:

«حين كان شارون يقتحم بيروت صيف ١٩٨٢ كانت مباضع الجراح تشق صدر الصديق الشاعر الطفل الثائر نزار قباني، لإجراء عملية «القلب المفتوح» في جسده البض الممدد على سرير غرفة العمليات الجراحية في مستشفى جورج تاون في واشنطن، في الوقت الذي كنت خلاله مقيما في فندق «ووترجيت» الشهير، استعدادا للدخول إلى المستشفى نفسه لإجراء فحوص طبية، وإذ حان موعد إدخالي المستشفى، كان نزار يغادره بقلب نابض قد نجح الجراح بترميمه.

وفي مستشفى جورج تاون أخبرني طبيب شارك برعاية نزار خلال الأيام التي أمضاها فيه بأن الصديق نزار، قد يتوقف قلبه بعد ترميمه، عن النبض في مدة قد يكون أقصاها نهاية عام ١٩٩٧ .

كانت الخمسة عشر عاما التي حددها لي أحد أطبائه كحد أقصى لما تبقى من حياته، تكاد مع عام ١٩٩٧، تنعدم، ولم أصارحه قط بذلك، لا في محادثاتنا الهاتفية بين لندن والقاهرة، ولا في رسائلنا البريدية المتبادلة، وهي كثيرة.

في النصف الثاني من سبتمبر ١٩٩٧ دلف نزار إلى الغيبوبة، وتم نقله إلى غرفة

(١) مجلة روز اليوسف ٤ مايو ١٩٩٨ .

العناية الفائقة في مستشفى سانت توماس بلندن حيث أقام عدة أسابيع في هذا البرزخ الفاصل بين الحضور واحتمال السفر إلى الأبد، وبمعجزة علاجية طبية أخرجوا دماغه من حالة الغيبوبة «الكوما» التي ظل فيها أسابيع كثيرة، وبإعادته إلى منزله من المستشفى، تذوق طعم «المجد الخالد» من الاتصالات الهاتفية والكتابية التي انهمرت عليه كالمطر مستفسرة عن حالته الصحية، مبتهلة إلى الله بأن يمن عليه بالعافية والعمر المديد، وكان يبدو لي سعيدا وهو يحدثني عبر الهاتف عن هذه الاتصالات والرسائل المنهمرة نحوه من جميع أنحاء الوطن العربي، كالمطر المغيث، غير أنني كنت ألاحظ بحاسة السمع، أن صوته قد أصابه ضعف ووهن، وأن «عافية الصوت» باتت تخذله وتتسرب منه يوما بعد آخر بإيقاع سري بطيء، تسرب في ربيع ١٩٩٨ شممت بأذني رائحة الموت الزاحف نحوه بخطاه السرية الوئيدة، وكنت أرى الخمسة عشر عاما التي حددها لي أحد الأطباء الذين رعوه في مستشفى جورج تاون عام ١٩٨٢ كحد أقصى لما تبقى له من حياته، تكاد تنقضي، فأدرك أن الصديق الغالي الثمين جدا «نزار قباني» إنما بدأ يمارس لعبة الحياة في فترة «الوقت الضائع» دون أن يدرك ذلك»

وعلى إثر نشر أخبار مرض نزار ودخوله المستشفى اهتز محبو الشاعر الكبير، فكتب شاعر العاطفة المغناة فاروق جويدة تحت عنوان «سلامة قلبك يا نزار» يقول: «أرهقت الأيام والأحداث قلب شاعرنا الكبير نزار قباني.. وأمام موجات الانكسار المتلاحقة وهن قلب الشاعر فتمرد القلب المتعب على صاحبه ودخل نزار أخيراً غرفة الإنعاش في أحد مستشفيات لندن يداوي القلب المجهد ويريح النبض الواهن ويعيد جسور التواصل بينه وبين قلبه بعد رحلة عناء طويلة أخذت من عمر الشاعر نصف قرن من الزمان في واحدة من أكثر رحلات العطاء الشعري خصوبة وإثارة ومتعة.

ولاشك أن قلب نزار الشاعر والإنسان قد تحمل الكثير في رحلة شاقة عبر أزمنة اختلفت ملامحها وتعددت محطاتها، كان من بينها محطات ألم عميق بدأت برحيل

الزوجة وانتهت برحيل الابن، وما تلى ذلك من توابع كان آخرها ذلك المنفى الاختياري الذي اختاره الشاعر مرغما أمام ظروف الحروب والصراعات وأزمنة القبح والتشرذم.

إن شعر نزار يبدو أحيانا في عذوبة الماء.. وفي أحيان أخرى يحمل جموح النار وقسوتها.

كان ولايزال يفجر حوله كل الأشياء حتى يخيل إليك أن هذا الإنسان اختار لنفسه أن يقوم بعملية انتحارية غير محسوبة العواقب.

ومن بين براكين نزار الصاخبة والثائرة دائما تفجرت أشياء كثيرة. تفجرت أنهار من الشعر الجميل.. في الحب والغزل.. وتفجرت سيول من اللهب الضاري في السياسة.

إن براكين نزار قباني التي غيرت الكثير والكثير في خريطة الشعر العربي والإنسان العربي والزمان العربي رحلة من الرحلات الخصبة في أدبنا العربي الحديث».

وفي صباح يوم الخميس ٣٠ أبريل ١٩٩٨ رحل نزار قباني عن الحياة بعد أن ظل قيثارة العرب الشعرية لمدة نصف قرن عكس خلالها مشاعرنا وعواطفنا، وواكب انتصارات العرب وانكساراتهم وكان في نهاية أمره يستخدم الكي بالنار ليشفي الجرح وينهض العرب من كبوتهم ويستعيدوا أمجادهم التليدة.

وكان في منفاه الاختياري في لندن يتحدث كثيرا عن المنفى وحين سئل أي منفى يليق به كشاعر كانت إجابته أن كل منفى يحرضه على كتابة الشعر هو المنفى الأجمل والأمثل [(1)] «اختلف رأيي كثيرا في المنفى عن الماضي، فما عاد مصدر عذابات بالنسبة إليّ، ولا أنا في المنفى أعانق حزني وأجلس إليه، ولكي يكون الإنسان مبدعا كبيرا، عليه أن يكون منفيا كبيرا، فكتاب العالم الكبار هم منفيون أساسا كما أن

(١) الأهرام / ١٩ أكتوبر ١٩٩٩ .

(٢) مجلة الشروق / الأمارات ٢٥ نوفمبر ١٩٩٣ .

شعراء المهجر العربي كانوا شعراء منفى في الصميم مثل إيليا أبو ماضي، وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، وأحمد زكي أبو شادي وغيرهم.

كما أن الشعر الأندلسي كان شعر منفى بشعرائه الذين خرجوا من دمشق مثل ابن زيدون، وابن المعتز، وابن نباتة الأندلسي، هؤلاء كانوا شعراء منفيين، لأن الوطن يحب ألا نلتصق به كثيرا، مثله بذلك مثل المرأة، فنحن نعرف في علاقاتنا العاطفية مع المرأة، أن الالتصاق الكبير يولد الملل الكبير والتثاؤب فكلما اقتربت المسافة، ضاقت الرؤية وتعتمت

ثم يقول في موضع آخر:

«سبق أن قلت «إن المرافئ هي مقبرة لطموح المراكب» وقلت في شعري:

أريد أن أحرق، يا سيدتي، خرائطي

أريد أن أضيع في الضياع

لم يكن الوصول يوما غايتي

وإنما الإقلاع»

«لذلك أفضل أن أكون كالهولندي الطائر الذي حكمت عليه الأقدار بالإبحار الأبدي عن أن أكون قاربا سياحيا صغيرا لنقل الركاب في أقنية مدينة البندقية».

وفي لحظة غضب وتمرد أرسل صيحته من منفاه: «إلى أين يذهب موتى الوطن» التي يقول فيها:

نموتُ مُصادفةً.. ككلاب الطريقْ

ونجهلُ أسماءَ من يصنعون القرارْ

نموتُ.. ولسنا نناقشُ كيف نموتُ؟ وأين نموتُ؟

فيوماً نموتُ بسيف اليمينْ

ويوماً نموت بسيف اليَسارْ

نموتُ من القهرْ. . حرباً وسلماً
ولا نتذكرُ أسماء من شيَّعُونا
ولا نتذكرُ أوُجهْ من قتلونا
فلا فرق في لحظة الموت،
بين المجُوس. . وبين التتَار!!

* * *

بلادٌ. . تُجيدُ كتابة شِعْرِ المراثي
وتمتدُّ بين البكاءِ. . وبين البُكَاءْ
بلادٌ. . جميع مدائِنها كَرْبلاءْ

* * *

بلادٌ يُعدُّ حقائبها للرحيلْ
وليسَ هناكَ رصيفٌ
وليسَ هناكَ قطارْ

* * *

بلادٌ بكعبِ الحذاءِ تُدارْ
فلا من حكيم. . ولا من كتابْ. .
بلاد. . بها الشعبُ يأخذُ شكل الذُبابْ
بلاد. . يديرُ المسدَّسُ فيها شئونَ الحوارْ
بلادٌ. . يسيِّجُها الخوفُ،
حيث العرونةُ تغدو عقاباً

وحيثُ الهزيمةُ تغدو انتصارْ

* * *

مبادئُ.. بالرَطْل مطروحةٌ
على عَربات الخُضارْ
دساتيرُ، تكفلُ حريَّةَ الرأي،
تُعَرضُ كالفِجْل.. في عَربات الخُضَارْ
قصائدُ ليس عليها إزَارْ
وتُرمى صباحاً كأيَّة جيفهْ
على عَربات الخُضَارْ..

* * *

بلادٌ.. بدون بلادِ
فأين مكانُ القصيدة بين الحصارِ وبين الحصارْ؟
كأنَّ الكتابةَ في مُدن المِلْحِ
فِعْلُ انتحارْ

* * *

بلادٌ تحاولُ أشجارُها...
من اليأس..
أن تتوسَّل تأشيرةً للسَفَرْ

* * *

أفتّشُ عن وطن لا يجيءُ..
وأسكنُ في لغةٍ ليس فيها جدارْ
بلادٌ تخافُ على نفْسِها من قصيدة شِعْرٍ
ومن قمر الليلِ،
حين يُمشّط شعر المساءْ
وتخشى على أمنها من بريد الهوى
وعُيونِ النساءْ

* * *

إلى أين يذهبُ مَوْتَى الوَطَنْ؟
وكُلُّ العقارات فيه،
مُخَصَّصةٌ لاستضافة من يحرسُون الرئيسْ
ومن يُطبخون طعام الرئيسْ
ومن يدلكُون بزيتْ البنفسج
صدرَ الرئيسْ.. وبَطْنَ الرئيسْ
ومن يحملون إليه كئوس اللبنْ
إلى أين يذهبُ من سقطوا في حُروب الرئيسْ؟
وما عندهُمْ شِقَّةٌ للسكَنْ!!

* * *

ولو مُوتنا كان من أجل أمر عظيم
لكنَّا ذهبنا إلى موتنا ضاحكينْ
ولو موْتنا كان من أجل وقْفَةِ عزٍّ

وتحرير أرضٍ . . وتحرير شعبٍ
سبقنا الجميع إلى جنَّة المؤمنينْ
ولكنهم قرَّروا أن نمُوتَ
ليبقى النظامْ . .
وأعمام هذا النظامْ
وأخوال هذا النظامْ
ونبقى تماثيلُ مصنوعةٌ من عجينْ!

* * *

بحثتُ طويلاً عن المُتنبِّي . .
فلم أرَ من عِزَّة النَفْسِ إلا الغُبارْ
بحثتُ عن الكبرياء طويلاً
ولكنني لم أُشاهِدْ بعصر المماليكِ
إلاَّ الصغارِ . . الصغارْ . . !!

وبعد، فإذا كان نزار قباني قد رحل عن الحياة في ٣٠ أبريل ١٩٩٨ فإن شعره سيظل باقيا، وعلى حد قول أحد النقاد [(١)] أنه يصح في نزار قباني وشعره ما قيل، قديما عن المتنبي وشعره، من أنه قد، ملأ الدنيا وشغل الناس.

ونزار منذ ديوانه الأول «قالت لي السمراء» وديوانه الثاني «طفولة نهد» أحدث فتنة في النقاد والقراء، وكانت هذه الفتنة تتغذى عبر الزمن، بالدواوين والقصائد الأخرى، التي كان نزار يطلع بها وينشرها في الناس، وحتى الآن، فإن هذه الفتنة مازالت قائمة.

ويرى إيليا حاوي أن النقاد عامة، يتباين رأيهم في نزار عن آراء القراء وسائر أفراد الشعب وهؤلاء يرفعون من شأنه ويلتهمون دواوينه التي فاق انتشارها دواوين

(١) صحيفة الحياة لندن / ١ مايو ١٩٩٨ / الناقد إيليا حاوي.

الشعر العربي المعاصر مجتمعة.

ذلك أن أبناء الشعب والقراء العاديين يتذوقون الشعر بالحدس والفطرة البريئة، بحيث إنهم لا يرتابون بقيمة الشعر متى استجابت له نفوسهم استجابة عميقة.

ويرى الناقد أيضا أن بواعث الفتنة التي أحدثها نزار، ربما كانت متعددة، إلا أن أهمها أنه استهل شعره على المرأة، وبدت فتنة المرأة في شعره امرأة أخرى إلا أن «نزار قباني» لم يكن نزارا واحدا متكررا، بل أنه كان فيه أشخاص كثيرون، وكلهم معبرون ومبدعون وهؤلاء الأشخاص وإن تفرقوا فيه، فإنهم لم يتبددوا بل أنهم يعودون ويلتقون في مراحل، ويكون «نزار» واحدا أوحد، لا تمزق ولا تعدد فيه.

وهكذا فإنه نزع من مرحلة «الحركة» شبه العصبية في قصائده الأولى إلى مرحلة «السكون في دواوينه الأخيرة» ولنزار مواقف من الحرية ومن السياسة وبخاصة في دواوينه الأخيرة والمرء قد يتساءل كيف انتقل نزار من النقيض إلى النقيض، إلا أن التأمل فعلا شعره، لا يجد تناقضا قط بل حالة من أحوال التكامل واللقيا.

وبعد، فإن نزار سيبقى قيثارة للشعر العربي الجميل، لأنه.. على حد تعبير الشاعر محمد الفيتوري.. صوت عصرنا الراهن من دون جدال، صوت النضال والإبداع والجمال العاطفي ومحبة الإنسانية جمعاء، إنه شاعر المرحلة وإن قامته لترتفع كثيرا عن قامات الكثيرين من مجايليه من الشعراء.. لقد عرف وحده أن يجعل من اللحظة العاطفية نهرا متدفقا من الإيقاعات والتصورات والإحساسات ومن الكلمة النثرية لبنة موسيقية أساسية تأخذ وضعها الحقيقي في بناء القصيدة الحديثة، وإليه وحده يعود الفضل في تعميم الإحساس بالشعر وبالقيم الفنية الجديدة.

إنه شاعر عربي شاعر الأمة العربية كما يقول الناقد عبده وازن - شاعر جعل من القصيدة فارسا من فرسان العصر خاض معاركه بلا هوادة فانتصر ومعه انتصر الشعر على كل ما عداه.

إنه نزار قباني.. تلك القيثارة الشجية التي عبرت عن مشاعرنا الوجدانية على مدى نصف قرن، وجسدت القضايا العربية في الانتصارات والانكسارات، فكان بحق **«شاعر الحب والحرية»**.

الباب الثالث

مختارات من

قصائد نزار السياسية المغضوب عليها

تقرير سري جدا
من بلاد «قمعستان»

كان نزار قباني يرى أن أزمة العقل العربي هي أزمة إبداع وشجاعة.. فالعقل العربي لا يواجه بشجاعة ما يجري في العالم. ولا يواجه بشجاعة القضايا العربية، فالكاتب العربي - في رأي نزار - محاط بسياج من الرعب ومحاط بالخوف، فهو يحسب ألف حساب قبل أن يضع كلمته على الورق، وهو كإنسان يخاف على جسده وعائلته ورزقه، ولذلك فهو يحاول ألا يواجه مباشرة، فيستعمل الرمز في ما يكتب أو يبتلع نصف الحقيقة أو ثلاثة أرباعها ولكن نزار قباني رفض هذا المنطق، حيث كان يرى أنه طالما أن الأدباء غير قادرين على المواجهة الكاملة فالسلطان سيبقى سلطانا والحاكم سيظل يسمع أغاني المديح والطبل والزمر له.. وبالتالي سيزداد غرورا وظلما!

فالعلاقة بين الكاتب والسلطان في العالم العربي علاقة خوف ورعب وهذا سببه في رأي نزار جبن بعض الكُتّاب، فهناك بعض الكتاب يركب في كل زمان حصان السلطة مع الراكبين، ويمارس النفاق السياسي ليبقى في مكانه وليرضى عنه السلطان، وكانت الأزمة الرئيسية في نظر نزار أن كل السلاطين يريدون أن يحولوا الكاتب إلى دجاجة أو إلى قطة أليفة في منزل أو إلى كلب للحراسة، فهي بالفعل أزمة شجاعة ومواجهة، ولذلك كان يرى أن عالمنا العربي لن يتقدم إلا حين تستطيع الكلمة أن تشق دربها دون أن يلقى القبض عليها، ودون أن تشنق ودون أن توضع في السجن.

وقد دفع نزار ثمن خروجه على المألوف غالبا وتمسكه بمواقفه وآرائه وأفكاره، فاغتيلت زوجته «بلقيس» في بيروت وتعرض للتهديد بالاغتيال، فآثر أن يبتعد عن العالم العربي ليعيش في منفاه الاختياري بلندن منذ مطلع الثمانينيات حتى رحيله.

ومن هنا كانت قصيدته «تقرير من بلاد قمعستان» يتناول فيها مأساة القمع والطغيان في أنظمتنا العربية وضحايا تلك الممارسات القمعية.

تقرير سري جداً..
من بلاد (قمعستان)!

لم يبق فيهم لا أبو بكر.. ولا عثمان
جميعهم هياكل عظمية في متحف الزمان.
تساقط الفرسان عن سروجهم.
واعتقل المؤذنون في بيوتهم
جميعهم قد ذبحوا خيولهم
وارتهنوا سيوفهم
ما كان يدعي ببلاد الشام يوما
صار في الجغرافيا
يدعي (يهودستان)
الله.. يا زمان..

* * *

لم يبق في دفاتر التاريخ..
لا سيف ولا حصان.
جميعهم قد تركوا نعالهم
وهرّبوا أموالهم
وخلفوا وراءهم أطفالهم

وانسحبوا إلى مقاهي الموت والنسيان.
جميعهم تخنثوا
تكحلوا..
تعطروا..
تمايلوا أغصان خيزران
حتى تظن خالداً.. سوزان
ومريما.. مروان
الله.. يا زمان..

***

جميعهم موتى.. ولم يبق سوى لبنان
يلبس في كل صباح كفنا
ويشعل الجنوب إصرارا وعنفوان
جميعهم قد دخلوا جحورهم
واستمتعوا بالمسك، والنساء، والريحان.
جميعهم مدجن، مروض، منافق، مزدوج، جبان
ووحده لبنان
يصفع أمريكا بلا هوادة
ويشعل المياه والشطآن
يأخذها بالصدر والأحضان
هل ممكن أن يعقد الإنسان صلحا دائما مع الهوان؟
الله.. يا زمان..

هل تعرفون من أنا؟
مواطن يسكن في دولة «قمعستان)
وهذه الدولة ليست نكتة مصرية
أو صورة منقولة عن كتب البديع والبيان
فأرض (قمعستان) جاء ذكرها
في معجم البلدان..
وأن من أهم صادراتها
حقائبا جلدية
مصنوعة من جسد الإنسان
الله.. يا زمان...

* * *

هل تطلبون نُبْذَةً صغيرةً عن أرض (قَمْعِستَانْ)؟
تلك التي تمتد من شمال إفريقيا..
تلك التي تمتد من شواطئ القَهْر، إلى شواطئ القَتْلِ،
إلى شواطئ السَحْلِ، إلى شواطئ الأحزانّ..
وسيْفها يمتدُّ بين مدخل الشِرْيانِ والشِريانْ..
وأوّلُ البنود في دستورها
يقضي بأن تُلْغى غريزة الكلام في الإنسانْ
الله.. يا زمان..

* * *

هل تعرفون من أنا؟
مواطنٌ يسكنُ في دولة (قَمْعِستَانْ)
مواطنٌ . .
يحلمُ في يومٍ من الأيام أن يُصْبحَ في مرتبة الحَيْوَانْ
مواطنٌ يخافُ أن يجلسَ في المقهى . . لكي
لا تطلعَ الدولةُ من غياهب الفنجانْ
مواطنٌ يخافْ أن يقربَ من زوجتهِ
قُبيل أن تُراقب المباحثُ المكانْ
مواطنٌ أنا من شعب (قَمْعِستَانْ)
أخافُ أن أدخلَ أيُّ مسجدٍ
كي لا يقال إنني رجلٌ يمارسُ الإيمانْ
كي لا يقول المخبرُ السريُّ:
إنّي كنتُ أتلو سُورةَ الرحْمَنْ
الله . . . يا زمان . . .

* * *

هل تعرفونَ الآن ما دولة (قَمْعِستَانْ)؟
تلك التي ألَّفَها . . لحنَّها . .
أخْرَجَهَا الشيطانْ
هل تعرفونَ هذه الدويلةَ العجيبةْ؟
حيثُ دخولُ المردُ للمرحاض يحتاجُ إلى قرارْ
والشمسُ كي تطلعَ تحتاجُ إلى قرارْ .

والديكُ كي يصيحَ يحتاجُ إلى قرارْ
ورغبةُ الزَوْجين في الإنجابِ
تحتاجُ إلى قرارْ
وشَعْرُ من أُحبُّها
يمنعه الشُرْطيُّ أن يطيرَ في الريحِ
بلا قرارْ..

* * *

ما أردأ الأحوال في دولة (قَمْعستَانْ)
حيثُ الذكورُ نُسْخةٌ عن النساءْ
حيث النساء نسخة عن الذكور
حيثُ الترابُ يكره البُذُورْ
وحيثُ كلُّ طائرٍ يخافُ من بقية الطيورْ،
وصاحب القرار يحتاج إلى قرارْ
تلك هي الأحوال في دولة (قَمْعِستَانْ)
الله.. يا زمان...

* * *

يا أصدقائي:
إنني مواطنٌ يسكنُ في مدينة ليس بها سُكَّانْ
ليس لها شوارع
ليس لها أرصفةٌ
ليس لها نوافذٌ

ليس لها جدارنْ
ليس بها جرائدٌ
غيرُ التي تطبُعها مطابع السلطانْ. . .
عنوانُها؟
أخاف أنْ أن أَبُوحَ بالعنوانْ
كلُّ الذي أعرفه
أنَّ الذي يقوده الحظُّ إلى مدينتي
يرحَمُهُ الرحمنْ. .

* * *

يا أصدقائي:
ما هو الشعرُ إذا لم يُعَلِن العصيانْ؟
وما هو الشعرُ إذا لم يُسْقِط الطُغاةَ. . والطُغْيَانْ؟
وما هو الشعرُ إذا لم يُحدث الزلزالَ
في الزمان والمكانْ
وما هو الشعرُ إذا لم يخلعِ التاجَ الذي يلبسُهُ
كِسْرى أنوشروانْ؟

* * *

من أجل هذا أُعلن العصْيَانْ
باسْمِ الملايين التي تجهلُ حتى الآن ما هو النهارْ
وما هو الفارقُ بين الغصن والعُصْفُورْ
وما هو الفارقُ بين الورد والمنْثُورْ

وما هو الفارقُ بين البحر والزنزانةْ
وما هو الفارقُ بين القمر الأخضر والقُرُنْفُلَةْ
وبين حَدِّ كِلْمةٍ شجاعةٍ،
وبين حَدِّ المِقْصَلَةْ. .
من أجل هذا أُعلنُ العصيانْ
باسْم الملايين التي تُساقُ نحو الذبح كالقِطْعَانْ
باسْمِ الذين انتزُعتْ أجفانُهُمْ
واقتُلِعَتْ أسنانُهُمْ
وذُوِّبوا في حامض الكبريت كالديدانْ
باسْمِ الذين ما لهم صوتٌ. .
ولا رأيٌ. .
ولا لسانْ. .
سأُعلنُ العِصْيَانْ. .

* * *

من أجل هذا أُعلنُ العصيانْ
باسْمِ الجماهير التي تجلس كالأبقارِ
تحت الشاشة الصغيرةْ
باسْمِ الجماهير التي يسقونها الولاءَ
بالملاعق الكبيرةْ

باسم الجماهير التي تُرْكَبُ كالبعيرْ
من مشرق الشمس إلى مغربها
تُرْكَبُ كالبعيرْ . .
وما لها من الحقوق غيرُ حق الماء والشعيرْ
باسم الجماهير التي تضرع لله لكي يديمَ القائد العظيم
وحزمةَ البرسيمْ . .

* * *

يا أصدقاء الشعر :
إنِّي شجرُ النارِ ، وإنّي كاهنُ الأشواقْ
والناطقُ الرسميُّ عن خمسين مليوناً من العشّاقْ
على يدي ينامُ أهلُ الحب والحنينْ
فمرةً أجعلُهم حمائماً
ومرةً أجعلهم أشجارَ ياسمينْ
يا أصدقائي . .
إنني الجرحُ الذي يرفضُ دوماً
سُلْطَةَ السكينْ . .
يا أصدقائي الرائعينْ :
أنا الشفاه للذينَ ما لَهُمْ شِفَاهْ
أنا العيونُ للذينَ ما لهم عُيُونْ

أنا كتابُ البحر للذينَ ليس يقرأونْ
أنا الكتاباتُ التي يحفرها الدمعُ على عنابر السجونْ
أنا كهذا العصر، يا حبيبتي
أواجهُ الجنونَ بالجنونْ
وأكسر الأشياءَ في طفولةٍ
وفي دمي، رائحةُ الثورة والليمونْ. .
أنا كما عرفتموني
هوايتي أن أكسر القانونْ
أنا كما عرفتموني دائماً
أكونُ بالشعْرِ. . وإلاَّ لا أريدُ أن أكونْ. . .

* * *

يا أصدقائي:
أنتُمُ الشعْرُ الحقيقيُّ
ولا يَهُمُّ أن يضحكَ. . أو يَعْبِسَ. .
أو أن يغضبَ السلطانْ. .
أنتُمْ سلاطيني. .
ومنكمْ أستمدُّ المجدَ، والقوَّة، والسُلْطانْ. .
قصائدي ممنوعةٌ
في المُدُنِ التي تنامُ فوق الملحِ والحجارَةْ
قصائد ممنوعةٌ. .
لأنَّها تحمل للإنسان عطرَ الحبِّ، والحضارةْ

قصائد مرفوضةٌ..
لأنَّها لكلِّ بيتٍ تحمل البِشَارةْ
يا أصدقائي:
إنني مازلتُ بانتظاركمْ
لنُوقِدَ الشرارةْ...

***

آخر عصفور يخرج من غرناطة..

كان نزار يأمل أن يجد السكينة والطمأنينة في بيروت التي أقام بها بعد استقالته من السلك الدبلوماسي عام ١٩٦٦ وأسس فيها دارا للنشر ولكن الأحداث الدامية التي شهدتها بيروت في السبعينيات وانتهت بمصرع زوجته بلقيس في مطلع ١٩٨٠ شعر بعدها أن الموت ينام معه في الستائر وعلى النوافذ وفي الممرات والكراسي والأقنعة حتى أنه وصف الوضع فقال: «بعد بلقيس أقمت بابا من الحديد في بيتي يسبق بيتي بمتر ونصف أغلقه عليّ وعلى أولادي من الساعة السابعة مساء، وأنام بعيون نصف مفتوحة أطل على أسرة أولادي كل هنيهة.. » شعر باحتياجه للطمأنينة.. فقرر الرحيل في المنافى وعندما أثبتت المقاومة البطولية في الجنوب اللبناني قدرتها على كسر الصلف الإسرائيلي شعر نزار أن هناك أملا كبيرا في تحرير الأرض المحتلة وأحس وهو يخرج من بيروت بتكرار ما حدث في محنة الأندلس وكأنه آخر عصفور يخرج من غرناطة بالأندلس.

آخر عصفور يخرج من غرناطة

عَيْنَاكِ.. آخرُ مركبينْ يُسَافرانِ
فهل هنالكَ من مكانْ؟
إنّي تعبتُ من التسكعِ في محطّاتِ الجنونِ
وما وصلتُ إلى مكانْ..
عَيْنَاكِ آخرُ فرصتين مُتاحتَيْنِ
لِمَنْ يفكّرُ بالهروبْ..
وأنا.. أفكّرُ بالهروبْ..
عَيْنَاكِ آخرُ ما تبقّى من عصافيرِ الجنوبْ

عيناك آخرُ ما تبقّى من نُجوم الصيفِ
آخر ما تبقّى من حشيش البحرِ،
آخرُ ما تبقى من حُقُول التَبْغِ،
آخرُ ما تبقّى من دُمُوع الأقحوانْ
عيناكِ.. آخرُ زفّةٍ شعبيةٍ تجري
وآخرُ مهرجانْ..
عَيْنَاكِ.. آخرُ ما تبقّى من تراث العشْق،
آخرُ ما تبقّى من مكاتيب الغرامْ
ويَدَاكِ.. آخرُ دفترينِ من الحرير..
عليهما..
سَجلتُ أحلى ما لديَّ من الكلامْ
العِشق يكويني، كلوح التُوتياءِ،
ولا أذُوبْ..
والشعرُ يطعُنني بخنجرهِ..
وأرفضُ أن أتُوبْ..
إنّي أُحِبّك..
يا التي اخْتَزَنَتْ بعينْيها بحيراتِ الجنوبْ
ظلّي معي..
حتى يظَلّ البحرُ مُحْتفظاً بزُرْقَتِهِ
ويبقى وجهُ فاطمةٍ
يُحلق كالحمامة تحت أضواءِ الغروبْ

ظلّي معي.. فلربما يأتي الحسينُ
وفي عباءته الحمائمُ، والمباخرُ، والطيوبْ
ووراءهُ المآذن والرُبا
وجميعُ ثوّار الجنوبْ..
عَيْنَاكِ آخرُ ساحليْن من البَنَفْسجِ
والعواصف مزّقتني
فكّرت أن الشعرَ يُنقذُني..
ولكنّ القصائدَ أغرقْتني..
فكرتُ أن الحبَّ يمكن أن يلْملِمنَي
ولكنَّ النساءَ تقاسَمَتْني..
أحبيبتي:
أعجوبةٌ أن ألتقي امرأةً بهذا الليلِ
ترضى أن تُرَافِقَني
وتغسلني بأمطار الحنانْ
أعجوبةٌ أن يكتبَ الشعراءُ في هذا الزمانْ
أعجوبةٌ أنّ القصيدةَ لاتزالُ
تمرُّ من بين الحَرَائقِ والدُخانْ.
أعجوبةٌ أن القصيدةَ لاتزال
تنطُّ من فوق الحواجزِ، والمخافرِ، والهزائمِ،
كالحصانْ
أعجوبةٌ.. أنَّ الكتابة لاتزالُ...

برغم شَمْشَمَة الكلابِ. .
ورغم أقبية المباحثِ،
مصدراً للعُنْفُوانْ. . .

* * *

الماءُ في عينكِ زيتّي. .
رَمَاديٌّ. .
وأشرعتي دُمُوعْ
وأنا على سطح السفينةِ،
مثَل عُصْفُورٍ يتيمٍ
لا يفكّرُ بالرجوعْ. .
بيروتُ أرملةُ العروبةِ
والحواجزِ،
والطَوائفِ،
والجريمة، والجُنُونْ. .
بيروتُ تُذْبَحُ في سرير زفافها
والناسُ حول سريرها متفرّجونْ
بيروتُ. .
تَنْزفُ كالدَجَاجةِ في الطريقِ،
فأينَ فرَّ العاشقون؟
بيروتُ تبحثُ عن حقيقتها،

وتبحثُ عن قبيلتها . .
وتبحثُ عن أقاربها . .
ولكنَّ الجميعَ منافقُونْ . .

* * *

عَيْنَاكِ . . آخرُ رحلةٍ ليليّةٍ
وحقائبي في الأرض تنتظرُ الهبوبْ
تتوسَّلُ الأشجارُ باكيةً لآخُذها معي
أرأيتمُ شجراً يفكرُ بالهروبْ؟
هذا هو الزمنُ المضرّجُ بالبَشَاعةِ، والفَضَائحِ،
والخيانةِ، والذنوبْ . .
هذا هو الزمنُ الذي فيه الثقافةُ،
والكتابةُ،
والكرامةُ،
والرُجُولةُ في غروبْ.

* * *

كيف الدخولُ إلى القصيدة ياترى؟
وَدَفاتري ملأى بآلاف الثُقُوبْ . .
وقميصيَ العربيُّ مملوءٌ بآلاف الثقُوبْ
لا القوميُّ . .
لا العربيُّ . .
لا الشعبيُّ

هذا الأرنبُ المهزومُ في كلِّ الحروبْ

* * *

عَيْنَاكِ.. آخِرُ ما تبقّى من شتُول النَخْلِ
في وطني الحزينْ.
وهواكِ أجملُ ثورةٍ بَيْضَاءَ
تُعْلَنُ من ملايين السنينْ.
كُوني معي امرأةً..
يُغطي وجهُها وجهَ الصبحْ
كُوني معي شعراً
يُسافِرُ دائماً عكْس الرياحْ..
كُوني معي غجريةً، بدَوِيَّةً. وحْشيَّةً
كُوني معي جنّيةً
لا يبلغُ العشّاقُ ذَرْوَةَ عِشْقهمْ
إلاّ إذا التحقوا بصفِّ الغاضبينْ.
أحبيبتي:
إنّي لأعلنِ أنّ ما في الأرض من عَنبٍ وتينْ
حقٌّ لكلِّ المُعْدمينْ
وبأنَّ كلَّ الشعْرِ.. كلَّ النثرِ...
كلَّ الكُحْل في العينينْ..
كلَّ اللؤلؤ المخبوء في النهدينْ..
كلَّ العشب، كلَّ الياسمين

حقٌّ لكل الحالمينْ.
كُوني معي..
ولسوف أعلنُ أن شمس اللّه،
تُشْبهُ في استدارتها رغيفَ الجائعينْ
ولسوفَ أُعلنُ دونما حَرَجٍ
بأنَّ الشِعْرَ أقوى من جميع الحاكمينْ...

***

هجم مثل ذئب علينا..

مِنْ بِحَار النزيف.. جاءَ إليكُمْ
حاملاً قلبهُ على كفَّيْه
ساحباً خِنْجَرَ الفضيحة والشعرِ،
ونارُ التغيير في عينْيهِ
نازعاً معطفَ العُرُوبة عنهُ
قاتلاً، في ضميره، أبوْيهِ
كسرتْهُ بيروتُ مثَل إناءٍ
فأتى ماشيا على جفنْيهِ
أين يمضي؟ كلُّ الخرائط ضاعتْ
أين يأوي؟ لا سقفَ يأوي إليهِ
ليسَ في الحيِّ كلِّه عروبي

* * *

أمريكا تجرّبُ السَوط فينا
وتَشُدُّ الكبيرَ من أُذُنيهِ
وتبيعُ الأعرابَ أفلامَ فيديو
وتبيعُ الكُولا إلى سيبويهِ...
.. وألف جبانٍ
بيننا راكعٌ على ركبَتَيْهِ

من خرابِ الخرابِ.. جاءَ إليكمْ
حاملاً موتَهُ على كَتِفَيْهِ
أيَّ شِعْرٍ تُرَى، تريدونَ منه
والمساميرُ، بعدُ، في معْصَمَيْهِ..
يا بلاداً بلا شعُوبٍ.. أفيقي
واسْحبي المستبدَّ من رجْلَيْهِ
يا بلاداً تَسْتَعْذِبُ القمعَ.. حتى
صارَ عقلُ الإنسان في قَدَمَيْهِ
كيفَ يا سادتي، يُغني المغنّي
بعدما خيَّطوا له شفتيْهِ؟
هل إذا ماتَ شاعرٌ عربيٌّ
يجدُ اليومَ مَنْ يُصَلّي عليهِ..؟
من شظايا بيروتَ.. جاء إليكُمْ
والسكاكينُ مَزّقَتْ رئتيْهِ
رافعاً رايةَ العدالة والحُبّ..
وسيفُ الجَلّاد يُومي إليهِ
قد تساوتْ كلُّ المشانق طولاً
وتساوى شكلُ السجون لديهِ
لا يبوسُ اليديْنَ شِعْري.. وأحرى
بالسلاطينِ، أن يبُوسُوا يَدَيْهِ..

أحمر.. أحمر.. أحمر

كانت قضية نزار الكبرى طيلة حياته الطويلة الممتدة مع الشعر والتمرد (١٩٢٣ - ١٩٩٨) هي محاربة القمع والدعوة إلى الحرية.. حيث كان ينادي بمجابهة الظلم والقمع المستمر، ومجابهة عمليات غسل الدماغ المستمرة على دماغ الإنسان العربي وكان يرى أن حياتنا السياسية العربية لا تحتمل الرمز والتمويه والمواربة فالناس الذين نخاطبهم لا يحتملون الرمز لأن قضايانا واضحة، وتخلفنا واضح لذلك يجب أن نجابه الأمور بصراحة ووضوح كما هي.

ولذلك كانت صيغة نزار الثورية بخلاف تلك الصيغ والأساليب الشعرية التي تعتمد على الصور الشعرية والأساطير والرموز.

وكان يكرر وينادي بحرية الفكر والتعبير ولذلك حارب كل أساليب القمع حتى لو أدى الأمر إلى استشهاده فقال بالحرف الواحد: «أنا أريد أن استشهد.. فليس هناك شعر خارج الاستشهاد.. وهل تظنون أنني لا أتعرض لهذا بما أقوله لأي مخاطر» وبالفعل دفع نزار ثمن صراحته وجرأته غالياً.

أحمر... أحمر... أحمر..

لا تُفكّرْ أبداً.. فالضوءُ أحمرْ.
لا تُكلّمْ أحداً.. فالضوءُ أحمرْ.
لا تُجادِلْ في نُصُوصِ الفِقْهِ، أو في النَحو، أو في الصَرْفِ،
أو في الشعرِ، أو في النثرِ،
إن العقلَ ملعونٌ، ومكروهٌ، ومُنْكَرْ..

* * *

لا تُغادر قُنّك المختومَ بالشَمعْ
فإن الضوءَ أحمرْ

لا تُحبَّ امرأةً.. . أو فأرة
إنْ ضوءَ الحبّ أحمَرْ
لا تُضاجع حائطا، أو حَجراً، أو مَقعْداً. . .
إن ضوءَ الجنسْ أحمَرْ
إبق سرِّياً. . ولا تكشفْ قراراتك
حتى للذُبابةْ
إبقَ أمياً. . ولا تدخُلْ شريكاً في الزنى أو في الكتابَةْ. .
فالزنى في عصرنا أهونُ من جُرْم الكتابَةْ. .

* * *

لا تُفكِّرْ بعصافيرِ الوطَنْ
وبأشجارِ، وأنهارِ، وأخبارِ الوطَنْ
لا تُفكِّرْ بالذين اغْتَصَبُوا شَمْسَ الوطَنْ
إنَّ سيفَ القَمْع يأتيك صباحاً
في عناوينِ الجريدَة. .
وتَفَاعيلِ القصيدَةْ. .
وبقايا قَهْوَتِكْ
لا تَنْم بين ذراَعيْ زوجتِكْ
إنَّ زُوَّاركَ عند الفجرِ. .
موجودونَ تحتَ الكَنَبَةْ.

* * *

لا تُطَالعْ كُتُباً في النقْد أو في الفَلْسَفَةْ
إنَّ زُوَّاركَ عند الفجرِ. .
مزروعُونَ، مثلَ السُوس، في كلِّ رُفُوف المكْتَبَةْ
إبْقَ في برميلكَ المملوءِ نملاً. . وبَعُوضاً. . وقِمَامَةْ
إبْقَ مِنْ رجْلَيْكَ مشنوقاً إلى يومِ القيامَةْ
إبْقَ مِنْ صَوتكَ مشنوقاً إلى يومِ القيامَةْ
إبْقَ مِنْ عقلكَ مشنوقاً إلى يومِ القيامَةْ
إبْقَ في البرميلِ حتَّى لا ترى
وَجْهَ هذي الأمّةِ المُغْتَصَبَةْ. .

* * *

أنتَ لو حاولتَ أن تذهبَ للسلطان،
أو زوجته، أو صِهْرِهِ المسؤولِ عن أمْن البلادْ
والذي يأكُلُ أسماكاً. . وتُفَّاحاً. . وأطفالاً. .
كما يأكُلُ من لَحْم العبادْ. .
لوجدتَ الضوءَ أحمرْ. .

* * *

أنتَ لو حاولتَ أن تقرأ يوماً
نَشْرَةَ الطقسِ. . وأسماءَ الوفيَّاتِ. . وأخبارَ الجرائمْ
لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ.
أنتَ لو حاولتَ أن تسأل عن سعر دواء الربَوْ. .
أو أحذيةِ الأطفالِ. . أو سعْرِ الطَماطِمْ. .

لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ.
أنتَ لو حاولتَ أن تقرأ يوماً صفحةَ الأبراجِ.
كي تعرفَ ما حَظُّكَ..
أو تعرفَ ما رَقْمُكَ ما بين طوابير البهَائمْ.
لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ..

* * *

أنتَ لو حاولتَ أن تبحثَ عن بيتٍ من الكرتُون يأويكَ..
أو سيِّدة - من بقايا الحرب - ترضى أن تُسَلِّيكَ..
.. أو ثلاّجةٍ مُسْتَعمَلَةْ
لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ..
أنتَ لو حاولتَ أن تسأل أستاذَكَ في الصفِّ.. لماذا؟
يَتَسَلَّى عربُ اليوم بأخبار الهزائمْ؟
ولماذا عَرَبُ اليوم زُجَاجٌ فوقَ بعضٍ يتكسَّرْ؟
لوجدتَ الضوءَ أحمَرْ..

* * *

لا تُسَافِرْ بجوازٍ عربّيْ..
لا تسافرْ مرَّةً أخرى لأوروبَّا..
فأوروبَّا - كما تعلمُ - ضاقَتْ بجميع السُفَهَاءْ
أيُّها المنبوذُ، والمشبوهُ، والمطرودُ من كُلِّ الخرائطْ
أيُّها الديكُ الطعينُ الكبرياءْ..
أيُّها المقتولُ من غير قتالٍ

أيُّها المذبوحُ من غير دماءْ
لا تُسافرْ لبلاد الله.. إنَّ الله لا يرضى لقاءَ
الجُبَنَاءْ..

* * *

لا تُسافرْ بجوازٍ عربّيْ..
وانتظرْ كالجُرذ في كُلِّ المطاراتِ.. فإنَّ الضوءَ أحمرْ..
لا تقلْ باللغة الفُصْحَى: أنا مروانُ، أنا عدنانُ،
أو سَحْبَانُ
للبائعةِ الشقراءِ في (هارُودز)
إنَّ الإسمَ لا يعني لها شيئاً..
وتاريُخكَ - يا مولاي - تاريخٌ مُزَوَّرْ..

* * *

لا تُفاخرْ ببطولاتكَ في (الليدو)..
فسوزانُ.. وجانينُ.. وكوليتُ..
وآلافُ الفَرَنْسيَّاتِ لم يقرأن يوماً
قصّةَ الزيرِ وعنترْ.
أنتَ تبدو مُضْحكاً في ليل باريسَ..
فَعُدْ فوراً إلى الفندقِ.. إنَّ الضوءَ أحمرْ..

* * *

لا تُسافرْ بجوازٍ عربّيْ.. بين أحياءِ الغَرَبْ
فهُمُ من أجل قِرْشٍ يقتلُونَكْ..

وهُمُ - حين يَجُوعُون مساءً - يأكلُونَكْ

لا

لا تكُنْ ضيفاً على حاتم طَيْ

فهو كذّابٌ.. ونصّابٌ..

فلا تَخْدَعْكَ آلافَ الجواري..

وصناديقُ الذَهَبْ..

* * *

يا صديقي:

لا تَسرْ وحْدَكَ ليلاً

بين أنيابِ العَرَبْ..

أنتَ في بيتكَ محدودُ الإقامةْ..

أنتَ في قومكَ مجهولُ النَسَبْ..

يا صديقي:

رحِمَ اللّه العَرَبْ!

لابد أن أستأذن الوطن

مازال نزار يعزف على قيثارة الغربة أنغام الأسى والحزن والحنين.. فبالرغم من أن نزار كان يكرر دائما أن المرافئ المعلومة لا تثير شهيته، لأنه هو الذي يكتشف مرافئه، وهو الذي يخترعها، وإذا كان مركبه مجنونا، فلأن وطنه العربي هو سيد المجانين: سياسته مجنونة، وتصرفاته مجنونة، وخلافاته مجنونة، وإذاعاته مجنونة، وتليفزيوناته مجنونة.

ولأنه شاء أم أبى، جزء من هذا العالم: جزء من تاريخه، حزء من غضبه، جزء من زلازله، جزء من انتصاراته وهزائمه وانهياراته العصبية لم يستطع أن ينسى وطنه في منفاه الاختياري المريح له جسديا ونفسيا وأمنيا.

أنه كان يشبه نفسه في منفاه الاختياري بقصة الهولندي الطائر الأسطورية التي تدور حول رجل حكمت عليه الأقدار أن يبقى مبحرا ملايين السنين، دون أن يكون له الحق أن يشيخ، أو يتعب، أو يموت، أو يستقر في مرفأ من المرافئ.وكان شرط الآلهة الوحيد على «الهولندي الطائر» للخلاص من اللعنة التي تلاحقه، أن يجد امرأة ترضى أن تصعد معه جميع المحيطات، وتقبل بإرادتها أن تبحر معه، وترسو معه، وتموت معه!

وكان نزار يرى أن قصة الهولندي الطائر هي قصته باختصار فلا مرفأ من المرافئ يقبل دخوله إليه، ولا أسماك القرش تقبل أن تصالحه ولا العاصفة ترضى أن تكون لطيفة معه، وأخيراً لا امرأة لديها الاستعداد لتصعد معه سفينته.

لابد أن استأذن الوطن..

من قَبْل أن أكتب عن عَيْنَيْكِ.. يا حبيبتي
لابُدَّ أن أستأذنَ الشَجَرْ
من قَبْلِ أن أكتب عن وجهك يا أميرتي

لابُدَّ أن أستأذِنَ القَمَرْ
من قَبْلِ أن أدورَ في فَضَاءٍ.. يا سيِّدتي
لابُدَّ لي..
لابُدَّ لي..
لابُدَّ أن أستأذِنَ الوطنْ

* * *

في هذه الأيَّام، يا صديقتي..
تخرجُ من جُيُوبنا فَرَاشةٌ صيفيةٌ تُدْعى الوَطَنْ.
تخرجُ من شفاهنا عريشةٌ شاميَّةٌ تُدْعى الوَطَنْ.
تخرجُ من قُمْصَانِنا
مآذنٌ. بَلابَلٌ. جَدَاولٌ.. قُرُنفلٌ. سَفَرْجلٌ.
عُصْفُورَةٌ مائيةٌ تُدْعى الوَطَنْ.
أريدُ أن أراكِ يا سيِّدتي..
لكنّني أخافُ أن أجرحَ إحساسَ الوَطَنْ.
أريدُ أن أهتُفَ كُلَّ ليلةٍ، إليك يا سيِّدتي
لكنني أخافُ أن تسمعني نوافذُ الوَطَنْ
أريد أن أُمارسَ الحُبَّ على طريقتي
لكنَّني أخجلُ من حَماقتي
أمامَ أحزان الوَطَنْ.

* * *

هل في مرايا لندنٍ مَسَحَةٌ

أُبْصِرُ فيها وجهيّ المكْسُورْ؟
وهل بعينيكِ مكانٌ آمنٌ
أنامُ فيه ليلتي؟
أنا الذي أحملُ تحت معطفي العُصفُورْ..
ضيِّقةٌ.. فنادقُ الحزن التي أدخلُها
ضيَّقةٌ.. معاطفُ الحبّ التي ألبسُها
ضيَّقةٌ.. كلُّ الكتابات التي أكتبُها.
تغيرَّتْ خرائطُ الشعْرِ، كما نعرفُها
فأُعدمَتْ قصائدٌ جميلةٌ،
وتُوِّجتْ قصائدٌ من الخشَبْ..

* * *

تغيرَّتْ خرائطُ النساء في دفَاتري.
تغيرَّتْ ملامحُ الجبال، والوديان، والحنطة، والعنَبْ.
تغيرَّتْ مناجمُ الفضَّة والذَهَبْ.
فلا هناك عَبْلَةٌ.
ولا هناك خَوْلَةٌ.
ولا هُناك زَيْنَبٌ.
ولا هناكَ قَهْوَةٌ ولا رُطَبْ.
تغيرَّتْ قُرْطُبةٌ. تغيرَّتْ غَرْنَاطَةٌ
فلا نساءُ الشام يبتَسمْنَ لي
ولا جميلاتُ حلَبْ

إذا تغزَّلتُ بحُسْن امرأةٍ
تأكلُني الأسماكُ في بحر العَرَبْ.

* * *

هذا زَمَانُ النثر، يا حبيبتي
فما به شِعْرٌ. ولا حُبٌّ، ولا غَيْمٌ. ولا أمطارْ.
فكيفَ يا حبيبتي؟
أكتُبُ أشواقي على دفاتر الغُبارْ.
أريدُ أن أراكِ يا حبيبتي
لعلَّني أسرقُ من عَيْنَيك بعضَ النارْ.
أودُّ أن أقرأ في يَدَيْكِ ما تُخبّيءُ الأقدارْ
أريدُ أن أزْرَعَ في أحشائكِ
الأطفالَ.. والحَمَامَ.. والأشجارْ..
أريدُ أن أضيعَ في بحركِ حتى آخرِ الإبْحَارْ.
أريدُ آلافا من الأشياء،
لكنْ.. فَاتَني القطارْ..

* * *

هل في مقاهي لندنِ
طاولةٌ مُفْرَدةٌ
وقَهْوَةٌ جيِّدةٌ
تغسلُ عن قلبي التَعَبْ؟
أين تُرى أهربُ من ذاكرتي؟

إذا طلبتُ وَجْبَةَ الإفطار، يا سيِّدتي
يأكُلُها أبو لَهَبْ...
إذا دخلتُ صالة الحَمَّامِ،
يستقبلني أبو لَهَبْ...
إذا تكلَّمتُ على الهاتف من مدينةٍ
يدخُلُ في الخَطِّ معي، أبو لَهَبْ...
إذا دعوتُ امرأةً جميلةً
إلى العشاء ليلةً..
يجلسُ في أحضانها أبو لَهَبْ...
هل في مقاهي لندنٍ زاويةٌ صغيرةٌ
خاليةٌ من العَرَبْ؟..

* * *

أبحثُ في الصباح عن جريدةٍ
صينيَّةٍ.. كُوريَّةٍ.. هنديَّةٍ
أرتاحُ فيها من فَصَاحات العَرَبْ..
وعَنْتَريَّاتِ العَرَبْ!!
أُمَشِّطُ التاريخَ، يا سيِّدتي
عِبَارةً عِبَارةً،
وصَفْحَةً فصَفْحَةً،
ونُقْطَةً فنُقطَةً،
فلا أرى إلا خياماً أكَلَتْ خِيَامًا..

ولا أرى إلاَّ نظاماً قد مَحَا نظامَا

ولا أرى مُعْتَصِماً . .

ولا أرى هشَاما . .

فهل نكونُ كِذْبةً كبيرةً

نحنُ العَرَبْ؟؟

فاطمة تشتري عصفور الحزن

لم يستطع المنفى بكل ما فيه من رفاهية ودعة أن يطفئ نار الشوق والحنين في قلب نزار، ولم يستطع أن ينسيه موطن ذكرياته وتاريخه وأمجاده، فمازال يعزف على قيثارة أعذب ألحان الشجن والحنين رغم ما غلف به تلك الألحان بنيران الثورة والتمرد والرفض.

أنه يناجي رفيقته في الغربة ويبثها أحزان قلبه وأشجان روحه من الأوضاع المتردية في الوطن العربي، ولكنه يشعر أنه مهما شرب من كوثر الغربة فإن قلبه الظامئ للحب الحقيقي لن يرتوي، فكأنه يشرب من البحر الأجاج الذي لا يروي ظمآن، ولا يرضى قلب الغريب التائه!.

كم تغزل نزار في المنفى ووصفه أنه جميل ورائع، لكنه مع ذلك لم ينجح في إخفاء نيران قلبه المشتعلة من هذا الإبعاد الاختياري عن وطنه العربي بعد أن تقطعت به السبل بعد مصرع زوجته ولم يجد الأمان إلا في هذا المنفى الاختياري.

صحيح أن أحد مفاتيح شخصية نزار الرئيسية هي القلق وعدم الاستقرار حتى أنه كان يحب أن يظل تائها في بحار العشق والغربة والمجهول لأنه يكره المرافئ لأنها رمز الثبات والطمأنينة والسلامة، وهو يكرهها لأنها نهاية طموح المراكب، وفضل عليها الترحال لأن الشعر برأيه هو مغامرة بحرية خارقة.. وصدام مستمر مع اللون الأزرق، وصراع مع المجهول والمنتظر.

إن مناجاته لملهمته فاطمة التي تمثل العروبة مليئة بالشجن والحنين ودموع الغربة رغم شكلها الثوري الرافض المتمرد الساخط!

فاطمة تشتري
عصفور الحزن..

ناديتُ فاطمةً.. وما وصَلَ النداءُ
لم يَبْقَ حبٌّ في مدينتنا

ولا بقيتْ نسَاءُ.
إنّي لأبحثُ عن سماء طُفُولتي
وأعودُ مهزُوماً،
فأينَ هي السماءُ؟

* * *

هل أوَّلُ البُكَاءُ؟
هل آخِرُ الوطن البُكاءُ؟

* * *

وطنُ بدون نوافذ
هربتْ شوارعُهُ
مآذنُهُ
جوامعُهُ
كنائسُهُ،

* * *

يتكسَّرُ المَنْفّي على المَنْفيّ
بداخِلِنا..
وتبكي الكبرياءُ..

* * *

ماذا سنكتُبُ كي نقولَ جراحَنَا
إنَّ المُسدَّسَ صار يكتُبُ ما يَشَاءُ..

* * *

إنَّ السياسةَ وحدَها مُسْتَنْقَعٌ
ماذا.. إذا التقَتِ السياسةُ والبَغَاءُ؟؟

* * *

تَسْتَنْشِقُ الكلماتُ كِبْرِيتاً
فأينَ هُوَ الهواءُ؟..

* * *

وَطَنٌ بلاَ وَطَنٍ..
وشَعْبٌ دُونَ ذاكرةٍ..
وأحرارٌ يُسَيِّرهُمْ إمَاءُ..

* * *

إنَّا لنُذْبَحُ كالنعاجِ..
كأنَّما
دمُنَا، لدى الحُكَّامِ، ماءُ...

* * *

مَنْفَي.. على مَنْفَي.. على مَنْفَي
ولا ثقبٌ صغيرٌ في الجدارْ.
مُدِّي يَدَيْك، صديقتي
فلربُّما تتدفَّقُ الأنهارُ من تحت السِوَارْ.
مُدِّي يَدَيْكِ.. فربَّما
من خاتَم الفيرُوزِ، يأتي المُشْمُشُ الحَمَوِيُّ،

والصَفْصَافُ، والدِفْلَي، وعِطْرُ الجُلَّنارْ. .
مُدِّي يَدَيْكِ. . فإنّني
من ألفِ عامٍ
كنتُ أنتظِرُ القِطَارْ. .

* * *

مَقْهَى فرنسيٌّ
على مَقْهَى سُوَيْديٍّ. .
على مَقْهَى سُويسريٍّ. .
كأنَّ القهوةَ السوداءَ. .
يصنُعها التوحُّدُ والشَقَاءْ. . .

* * *

مَقْهَى بشكلْ الجُرْح أدخُلُهُ
وفاطمةٌ أمامي،
مثلما الأسماك تَضْجَرُ في الإناءْ.
وأنا أُحاولُ أن أقولَ قصيدةً
في مَجْدِ عَيْنيَها. .
فأسْقُطُ في الرثَاءْ.
وأنا أحاولُ أن أُذكِّرَها بَبيروتِ
فتُدْخِلُني وتدخُلُ
في أقاليم البُكَاءْ. . .

* * *

مازلتُ أخترعُ الشوارعَ...
والمقاهي..
والحدائقَ..
والظلالْ..
مازلتُ أخترعُ الإجابَة والسُؤَالْ..

* * *

أينَ اللواتي، مَرّةً، أحبَبْنَني
لم يبقَ في كُتُب الهوى
ألفٌ وبَاءْ...

* * *

العِشْقُ يكتبُني.. ويَمْحُوني
وقلبي، ريشةٌ حمراءُ
يعلكُها الهوَاءْ...

* * *

لو أنني مَشَّطْتُ شَعْرَ حبيبتي
بأصَابعي..
لَمَحُوتُ خَطَّ الإستَواءُ...

* * *

سَفَرٌ
على سَفَرٍ..
على سَفَرٍ..

وَوُجْهتُنا المُحَالْ.

الطيرُ تأكُلُ من عيون صغارِنَا

هل نحنُ فَرْعٌ من بُطُونِ بَنِي هِلاَلْ؟..

* * *

عَرَبٌ.. بلا عَرَب..

وسيقانُ النخيل، مُكَسَّراتٌ في الرمالْ

والكُحْلُ في العَيْنَينِ، يرحَلُ خائفاً نحو الشَمالْ.

والشاعرُ العَرَبيُّ..

قد فَقَدَ الحقيقةَ

مثلما فَقَدَ الخَيَالْ...

* * *

وَطَنٌ يجيءُ على ضفائر زَيْنَبِ

ليلاً.. فما أحلى المَنَامْ.

وطَنٌ من النَعْنَاع يُوقِظُني

لألعبَ فوق أدراج الرخَامْ..

وَطَنٌ من النَارَنْجِ..

والخُبَّيزة الخَضْرَاءِ..

والقطط النظيفة.. واليَمَامْ

وَطَنٌ حَبِلْتُ بقَمْحِهِ.. وبخُبْزِهِ..

من ألفِ عامْ...

* * *

مَنْ يقرأُونَ قَصَائدي
يوماً . .
سيَقْطُرُ من أصابِعِهمْ . .
وفوقَ ثيابِهِمْ
تُوتُ الشآمْ . . .

* * *

بَحْرٌ شماليٌّ
على بَحْرٍ جنُوبيٌّ
على بَحْرٍ بلا بَحْرٍ . . .
وأجهزةُ المباحث من وراء السِنْدبَادْ . .
مازلتُ أخترعُ البلادَ . . ولا بلادْ . .
مازلتُ أبحثُ عن عَصَافيري . .
وأشيائي . .
وركْوة قَهْوتي . .
مازلتُ أبحثُ عن عباءة والدي
تحت الرمَادْ . . .

* * *

لا تقْلقي يوماً عَليَّ
إذا حزِنْتُ
فإنّني رَجُلُ الشتَاءْ
إنْ كنتُ مكْسُوراً . .

ومُكْتئباً . .
ومَطْوِيَّاً على نفسي . .
فإنَّ الحُزْنَ يخترعُ النساءْ . . .

* * *

ناديتُ زَيْنَبَ في قبيلتها
فردَّتْني الخناجرُ والسِهَامْ .
لا الشعْرُ مقبولٌ هناكَ . .
ولا الشُعُورُ . .
ولا الزُهُورُ . .
ولا مكَاتيبُ الغرَامْ . . .

* * *

عَيْنَاكِ من عَسَلٍ حجَازيٍّ
وخَصْرُكِ بعضُ ما غَزَلَ الغَمَامْ .
ويداك من ذهَبٍ . .
ومن عنبٍ . .
ومن حَبَقٍ . .
ومن قمرٍ حليبيٍّ . .
ومن ريش النَعَامْ .
وأنا . . أمامَ تحوّلات الكُحْلِ في العينْينِ ،
طفلٌ ضائعٌ وَسَطَ الزِحَامْ . .
وأنا أُحِبُّكِ . .

غيرَ أنّي قد نسيتُ الآنَ..
ترتيبَ الكلامْ...

* * *

قَلَقٌ ثقَافيٌّ..
حَضاريٌّ..
وُجُوديٌّ...
(كأنَّ الريحَ تحتي..)
في الرحيل وفي المُقَامْ.
لا شعْرُ فاطمةٍ ينامُ..
وليسَ يتركُني أنامْ...

* * *

مَنْفَايَ..
أصبحَ وردةً في عُرْوَتي
هل أصبحَ العربيُّ مَخلُوقاً
يُهاجرُ كاللّقالقِ والحَمَامْ؟؟

* * *

السيرةُ الذاتيَّةُ لسيَّافٍ عربيّ

وضع نزار قضية القمع والتسلط في أولويات رسالته الشعرية، حيث كان يعتبر نفسه «الناطق الرسمي باسم كل العرب» وكان يكرر دائما أنه لم يستقل يوما من هذه المهمة المقدسة :«لا أنا تعبت من هذه المهمة الجميلة والمرهقة.. ولا العرب تعبوا مني ومن صراحتي الجارحة معهم.. فالعرب لا يريدون «شعراء ببغاوات» يكررون الخطاب الرسمي للسلطة. ويأكلون خبز السلطان ويضربون بسيفه. يريدون شاعرا يقدم لهم قلبه كالتفاحة الحمراء ويتحدث بلسانهم، ويبكي بلسانهم ويعلمهم أبجدية الحرية وكان يؤمن بأنه ليس هناك شيء أخطر على المجتمع من «عهر الكلمات» فالكلمة في أساسها مصدر قداسة.. وكان يؤلمه أن الأمة العربية وصلت إلى زمن عربي لا قداسة فيه لشيء.. فهناك باعة شعر.. وباعة نثر وباعة مواقف وباعة ايدلوجيات ولذلك كان نزار يرى أن دور الفكر دور كبير فلابد أن يكون قياديا لأن الكلمة هي الأساس فالعقل العربي لا يواجه بشجاعة ما يجري في العالم ولا يواجه بشجاعة القضايا العربية، فالكاتب العربي اليوم محاط بسياج من الرعب ومحاط بأوامر تأتي من أعلى ومحاط بالخوف، وبكلمة واحدة الكاتب العربي اليوم يحسب ألف حساب قبل أن يضع كلمته على الورق.

السيرةُ الذاتيَّةُ لسيَّافٍ عربيّ

أيُّها الناسُ:
لقد أصبحتُ سُلْطَاناً عليكُمْ
فاكْسِرُوا أصنامكُمْ بعدَ ضلالٍ،
إنَّني لا أتَجَلَّى دائماً
فاجْلسُوا فوقَ رصيفِ الصَبْرِ
حتَّى تُبْصِرُوني.

أتركُوا أطفالكُمْ من غير خبْزٍ..
أتركُوا نِسْوَانكُمْ من غير بَعْلٍ
واتْبَعُوني..
إحْمَدُوا اللّهَ على نِعْمته
فلقدْ أرْسَلَني كي أكتُبَ التاريخَ،
والتاريخُ لا يكْتَبُ دُوني.
إنّني يُوسفُ في الحُسْنِ،
ولم يَخْلُقِ الخالقُ شَعْراً ذهبيّاً مثلَ شعْري
وجبيناً نبوياً كجبيني..
وعيُوني..
غَابةٌ من شجَرِ الزيتُونِ واللّوْزِ،
فَصَلُّوا دائماً.. كي يَحْفَظَ اللّهُ عيُوني.
أيُّها الناسُ:
أنا مَجْنُونُ ليْلى
شرفٌ أن تأكُلُوا حِنْطَةَ جِسْمي
شرفٌ أن تقطُفُوا لَوْزي.. وتيني
شرفٌ أن تُشْبِهُوني..
فأنا حادثةٌ ما حَدَثتْ
منذُ آلافِ القُرونِ..

* * *

أيُّها الناسُ:
أنا بَدْرُ الدُجَى، وبَيَاضُ الياسَمينْ.
وأنا مخترعُ المَشْنَقَةِ الأُولى..
كُلَّما فكَّرت أن أعْتَزِلَ السُلْطَةَ
يَنْهاني ضميري..
مَنْ تُرى يَحْكُمُ بَعْدي هؤلاءِ الطَّيِّبينْ؟
مَنْ تُرى يُخْرِجُ مِنْ مِعْطَفِهِ
ضَوْءَ القَمر؟
مَنْ تُرى يُرْسِلُ للناسِ المَطَرْ؟
مَنْ تُرى؟
يجلدُهُمْ تِسْعينَ جَلْدَةْ..
مَنْ تُرى؟
يصلُبُهمْ فوق الشَجَرْ..
مَنْ تُرى يُرغِمُهُمْ
أن يَعيشُوا كالبَقَرِ؟
ويَمُوتوا كالبَقَرِ؟
كلَّما فكَّرتُ أن أتْرُكَهُمْ
فاضَتْ دُمُوعي كغَمامَةْ
وقرَّرتُ بأنْ أركبَ الشَعْبَ..
مِن الآنَ.. إلى يومِ القِيامَةْ

أيُّها الناسُ:
أنا أملِكُكُمْ
مثلما أملِكُ خَيْلي.. وعَبيدي..
وأنا أمشي عليكُمْ
مثلما أمشي على سُجَّاد قَصْري..
أولَمْ أعثُرْ عليكُمْ ذاتَ يومٍ
بينَ أوراقِ جُذْودي؟؟
حاذِروا أن تقرأوا أيَّ كتابٍ.
فأنا أقرأُ عنكمْ..
حاذِرُوا أن تكتبُوا أيَّ خطابٍ
فأنا أكتُبُ عنكُمْ..
حاذِرُوا أن تَسْمَعُوا فَيْرُوزَ بالسرِّ..
فإنّي بِنَوايَاكُمْ عليمْ
حاذِرُوا أن تَنْشِدُوا الشعْرَ أمامي
فهو شيطانٌ رجيمْ
حاذِرُوا أن تذخُلُوا القَبْرَ بلا إذْني،
فهذا عندنا إثْمٌ عظيمْ
والزَمُوا الصَمْتَ، إذا كلَّمتكُمْ

* * *

أيُّها الناسُ:
أنَا مَهْدِيُّكُمْ، فانْتَظِرُوني.

ودمي ينبضُ في قلْب الدوَالي..
فاشْرَبُوني.
أوقفوا كلَّ الأناشيد التي يُنْشدُها الأطفالُ
في حُبِّ الوَطَنْ
فأنا صرْتُ الوَطَنْ
إنَّني الواحدُ..
والخالدُ.. ما بينَ جميع الكَائنات
وأنا المَخْزُونُ في ذاكرة التُفَّاح،
والنَاي، وزُرْق الأغْنيَات
إرْفَعُوا فوقَ الميادين تَصَاويري
وغَطّوني بَغْيم الكَلمَات..
واخْطُبُوا لي أصْغَرَ الزَوْجَات سنّاً..
فأنا لَسْتُ أشيخْ..
جَسَدي ليسَ يَشيخْ..
وسُجُوني لا تَشيخْ..
وجهازُ القَمْع في مملكتي ليسَ يَشيخْ
أيُّها الناسُ:
أنا الحجَّاجُ، إنْ أنْزَعْ قنَاعي، تَعْرفُوني
وأنا جنكيزُ خانٍ جِئتُكُمْ..
بحرَابي..
وكِلابي..

وسُجُوني.
لا تَضيقُوا - أيُّها الناسُ - ببَطْشي
فأنا أقتُلُ كي لا تقتُلُوني..
وأنا أشنُقُ كَيْ لا تشنُقُوني..
وأنا أدفُنُكُمْ في ذلك القَبْر الجَمَاعيِّ
لكَيْلا تَدْفنُوني...

* * *

أيُّها الناسُ:
اشْتَرُوا لي صُحُفاً تكْتبُ عنِّي..
إنَّها معُروضةٌ مثلَ البَغَايا في الشَوارعْ
إشْتَرُوا لي..
ورَقاً أخْضرَ مَصْقُولاً كأعشابِ الربيعْ
ومدَاداً.. ومَطَابعْ..
كلُّ شيءٍ يُشْتَرى في عصرنَا
حتَّى الأصابعْ..
إشْتَرُوا فاكهَةَ الفِكْرِ..
وخلُّوهَا أمامَي،
واطْبُخُوا لي شاعراً
واجْعَلُوهُ، بينَ أطباقِ طَعَامي.
أنا أُمِّيٌّ...
وعندي عُقْدَةٌ ممّا يقولُ الشُعَراءْ

فاشْتَرُوا لي شُعَراءً يتغنُّون بحُسني..
واجْعَلُوني نَجْمَ كُلِّ الأغْلفَةْ
فَنُجُومُ الرَقْصِ والمسرحِ،
ليسُوا أبداً أجْمَلَ مني..
إشْتَرُوا لي كُلَّ ما لا يُشْتَرَى
في أرضِنَا أو في السَمَاءْ
إشْتَرُوا لي..
غَابَةً من عَسَل النَحْلِ..
ورَطْلاً من نِسَاءْ..
فأنا بالعُمْلَةِ الصعبةِ أشْري ما أُريدْ
أشْتَري ديوان بشَارِ بن بُرْدِ
وشِفَاهَ المُتَنَبِّي..
وأناشيدَ لَبيدْ..
هي ميراثٌ قديمٌ لأبي.
فَخُذُوا مِنْ ذَهَبي،
واكْتُبُوا في أُمَّهَاتِ الكُتُبِ
أنَّ عَصْري..
عصرُ هَارُون الرَشيدْ...

* * *

يا جماهيرَ بلادي:
يا جماهيرَ الشُعُوب العربيَّةْ
إنني روحٌ نقيٌّ يغسلكُمْ من غبار الجاهليَّةْ
سَجِّلُوا صوتي على أشرطةٍ..
إنَّ صوتي أخْضَرُ الإيقاع كالنافُورة الأندلسيَّةْ
صَوِّروني.. باسماً مثل (الجُوكُونْدَا)
ووديعاً مثل وجه المُجْدليّةْ..
صوِّروني..
بوقاري، وجلالي، وعصايَ العسكريَّةْ
صوِّروني..
وأنا أقطعْ - كالتُفَّاح - أعناق الرعيَّةْ..
صَوِّروني..
وأنا أفترسُ الشعْرَ بأسْنَاني
وأمتصُّ دماءَ الأبْجَدِيَّةْ
صوِّروني
عندما أحملكُمْ فوقَ أكتافي لدارِ الأبَدِيَّةْ
يا جماهيرَ بلادي..
يا جماهير الشُعُوبِ العَرِبيَّةْ

* * *

أيُّها الناسُ:
أنا المسؤولُ عن أحلامكمْ، إذْ تحْلُمُونْ

وأنا المسؤولُ عن كلِّ رغيفٍ تأكُلُونْ
وعن الشِعْرِ الذي
- من خلف ظَهْري - تقرأونْ
فجهازُ الأمْنِ في قَصْري
يُوافيني بأخبار العصافير.
وأخبار السَنابلْ.
ويُوافيني بما يُحْدُثُ في بطن الحَواملْ

***

أيُّها الناسُ:
أنا مَسْجُونُكمْ..
فَلْتَعْذُرُوني.
إنَّني المَنْفيُّ في داخل قَصْري
لا أرى شمساً.. ولا نَجْماً..
ولا زَهْرَةَ دفْلَى..
منذُ أنْ جئْتُ إلى السُلْطَة طفْلا
ورَجالُ السيرك يلتفُّونَ حَوْلي
واحدٌ يَنْفُخُ ناياً...
واحدٌ يَضْربُ طَبْلا...
واحدٌ يَمْسَحُ جُوخاً...
واحدٌ يَمْسَحُ نَعْلا...
منذُ أن جئتُ إلى السلطة طِفَلا..

لم يَقُلْ لي مستشارُ القَصْر: (كَلاَّ)،
لم يَقُلْ لي وُزَرَائي أبداً لَفْظَةَ (كَلاَّ)،
لم يَقُلْ لي سُفَرَائي أبداً في الوجه (كَلاَّ)،
إنَّهُمْ قد عَلَّمُوني أن أرى نفسي إلهاً..
وأرى الشَعْبَ من الشرفة رَمْلا...
فاعْذُروني.. إنْ تحوَّلْتُ لهولاكو جديدٍ
أنا لم أقْتُلْ لوجه القتلِ يوماً..
إنَّما أقتلكُمْ.. كَيْ أتَسَلَّى!

❊ ❊ ❊

القصيدة تطرح أسئلتها

كان نزار يرى أن الأديب العربي أصبح خائفا على نفسه وعلى أسرته ورزقه، فهو يحاول ألا يواجه مواجهة مباشرة، فيستعمل الرمز في ما يكتب أو يبتلع نصف الحقيقة أو ثلاثة أرباعها وكان من رأى نزار أنه طالما نحن الكتاب غير قادرين على المواجهة الكاملة فالسلطان سيبقى سلطانا والحاكم سيظل يسمع أغاني المديح والطبل والزمر له.. ويزداد غرورا وظلما... فالعلاقة في الوطن العربي بين الكاتب والسلطان علاقة خوف ورعب وهذا سببه جبن بعض الكتاب. لأن بعضهم يركب في كل زمان حصان السلطان مع الراكبين ويمارس النفاق السياسي ليبقى في مكانه ليرضى عنه السلطان.. ولكن نزار كان يرفض هذا المنطق حتى لا يتحول الكتاب إلى دجاج أو إلى قطط أليفة في المنزل أو إلى كلاب للحراسة.. فهذه في رأيه كانت الأزمة الحقيقية.. أزمة شجاعة ومواجهة.. ولذلك كان نزار يرى أن عالمنا العربي لن يكون على المستوى الذي نريده إلا حين تستطيع الكلمة أن تشق دربها دون أن يلقى القبض عليها، ودون أن تشنق ودون أن توضع في السجن ولكن نزار الشاعر المتمرد أطلق صرخته متحديا السلطان وحاشيته بانتظار الشمس المشرقة مهما رفعوا الأسوار عاليا.

القصيدةُ تطرحُ أسئلَتها..

يَسُرُّني جداً..
بأن تُرْعِبَكُمْ قصائدي
وعندكُمْ، مَنْ يَقطعُ الأعْنَاقْ..
يُسْعِدُني جداً.. بأن ترتعشُوا
من قَطْرَةِ الحبرِ..
ومن خَشْخَشَةِ الأوراقْ..

يا دَوْلَةً.. تُخيفُها أُغْنيَةٌ
وكِلْمَةٌ من شاعرٍ خلاَّقْ...
يا سُلْطَةً..
تَخْشَى على سُلْطَتِها
من عَبَق الوردِ.. ومن رائحةِ الدُرَّاقْ
يا دَوْلَةً..
تطلبُ من قُواتِها المُسَلَّحَةْ
أن تلقىَ القَبْضَ على الأشواقْ....
يُطْرِبُني..
أن تُقْفلُوا أبوابكُمْ
وتُطلْقُوا كلابكُمْ
خوفاً على نسائكُمْ
من مَلك العُشَّاقْ...
يُسْعِدُني
أن تجعلُوا من كُتُبي مَذْبَحةً
وتَنْحَرُوا قصائدي.
كأنَّها النيَاقْ..
فسوف يغدو جَسَدي
تكيَّةً.. يزورُها العُشَّاقْ
يَقْرؤُني رقيبكُمْ..
وهْوَ يَسِنُّ شَفْرَةَ الحلاَقةْ..

كأنَّما رقيبُكُمْ
- في أصله - حَلاَّقْ...
ليس هناكَ سُلْطَةٌ
يمكنُها أن تمنعَ الخُيُولَ من صهيلِها
وتمنعَ العُصْفُورَ أن يكتشفَ الآفاقْ
فالكلماتُ وَحْدَها..
ستربحُ السبَاقْ...
ستقْتُلُونَ كاتباً..
لكنَّكُمْ لَنْ تقتلُوا الكتَابَةْ..
وتذبَحُونَ، رُبَّما، مُغَنِّياً
لكنَّكُمْ لن تذبحُوا الربَابَةْ..
تِسْعٌ وتِسْعُونَ امْرأةْ...
تَقْبَعُ في حريمكُمْ،
فالنَهْدُ قُرْبَ النَهدْ..
والساقُ قرْبَ الساقْ..
وكُلُّ شيءٍ جاهزٌ
وثيقَةُ النكاح.. أو وثيقَةُ الطَلاَقْ..
والنارُ في الأحداقْ
وتَمْنَعُونَ دائماً قَصَائدي
حِرْصاً على مكَارِمِ الأخلاقْ!

انْتَظِرُوا زِيَارتي . .
فسوفَ آتيكُمْ بدون موعدٍ
كأنَّني المَهْديُّ . .
أو كأنَّني البُرَاقْ . . .
إنْتَظِرُوا زيارتي . .
فلستُ محتاجاً إلى تأشيرةٍ
ولستُ محتاجاً إلى مُعَرِّفٍ
فالناسُ في بُيُوتِهِمْ يُعَلِّقُونَ صورتي . .
والناسُ، لو مررتُ في أحلامِهِمْ
ظَنُّوا بأنِّي (قَمَرُ الزَمانْ) . . . .
حينَ يَمُرُّ موكبُ الخليفَةْ
في زحْمة الأسْواقْ
يُبَشر الأطفالُ أُمهَاتهِمْ
لقد رأينا . . .
(طائرَ اللقْلاَقْ) . . . .
إنتظروني . . أيُّها الصيارفَةْ
يا مَنْ جعلتُمْ شِعْرَنا . . ونَثْرَنا . .
دُكَّانَة ارتزاقْ . .
انتظرُوا زيارتي . .
فالشعرُ يأتي دائماً
من عَرَقِ الشَعْبِ، ومن أرْغِفَةِ الخُبْزِ،

ومن أقْبِيةِ القَمْعِ..
ومن زَلازِل الأعماقْ
مهما رفعتُمْ عالياً أسْوَارَكُمْ
لَنْ تَمنَعُوا الشَمْسَ من الإشْراقْ...

***

حوار ثوري مع طه حسين

في إحدى ليالي خريف سنة ١٩٧٤ كان الموعد مع نزار قباني بمبنى جامعة الدول العربية بالقاهرة في الذكرى الأولى لرحيل عميد الأدب العربي، وحضرت هذه الأمسية الرائعة التي تألق فيها نزار وكنا لانزال نعيش في الأجواء التي تلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ والتضحيات المادية والبشرية التي قدمتها مصر في تلك الحرب المجيدة والتي حرص نزار على أن يتناولها في قصيدته.

كان طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) هو المناسبة لكن نزار كعادته عرج على الأحوال السياسية والوضع العربي القائم حينئذ.

كان عميد الأدب العربي يحتل مكانة متميزة في قلب نزار خاصة أن نزار عاش في القاهرة في مطلع حياته (١٩٤٥ - ١٩٤٨) تعرف خلالها على عدد من أبرز نجوم الأدب والفكر والفن في مصر منهم علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، والمازني، ومحمد عبد الوهاب، وأنور المعداوي، وغيرهم.

وتثير أحوال العالم العربي وشئونه شجون نزار وهو يرى التناقض الكبير بين من قدموا الدم في ساحات الحرب دفاعا عن العرب وبين من يريقون الأموال في بارات اللذة واللهو، إنها مأساة العرب التي عاش نزار يعالجها ويهاجمها ويدعو إلى نظرة رشيدة لاستثمار الطاقات العربية أفضل استثمار من أجل التقدم الحضاري المطلوب.

إنها قصيدة مليئة بالشجون والفكر الثوري الرافض، وتقدير لأحد أبرز رواد الفكر التنويري، ولذلك جاء حواره مع عميد الأدب العربي د. طه حسين من هذا المنطلق الثوري باعتبار طه حسين أديبًا ثوريًا تنويريًا رائدًا، وأحد مشاعل التقدم والحضارة والاستنارة.

كانت ليلة رائعة مليئة بزخم من مشاعر العزة والكرامة والشموخ.

***

حوارٌ ثوريٌّ

مع طه حسين

ضوءُ عَينَيكَ.. أمْ هُما نَجْمَتَانِ؟
كلُّهُمْ لا يَرى.. وأنتَ تَرَاني
لستُ أدري من أينَ أبدأ بَوْحي
شَجَرُ الدمع شاخَ في أجفاني
كُتِبَ العِشْقُ، يا حبيبي، علينا
فهو أبكاك مثلما أبكاني
عُمْرُ جُرحي.. مليون عامٍ وعامٍ
هل تَرَى الجرحَ من خلال الدخانِ؟
نَقَشَ الحُبُّ في دفاتر قلبي
كلَّ أسمائِهِ.. وما سمَّاني
قالَ: لابُدَّ أن تموتَ شهيداً
مثلَ كلِّ العشّاقِ، قلتُ عساني
وطويتُ الدُّجى أسائِلُ نفسي
أبِسَيْفٍ.. أم وردةٍ قد رماني؟
كيف يأتي الهوى.. ومن أينَ يأتي؟
يعرفُ الحبُّ دائماً عُنْواني..
صَدَقَ الموعدُ الجميلُ.. أخيراً
يا حبيبي، ويا حبيبَ البَيَانِ
ما علينا إذا جلسنا بِرُكْنٍ

وفَتَحْنَا حقائبِ الأحزانِ
وقَرأنا أبا العَلاء قليلاً
وقرأنا (رسالةَ الغُفْران)
أنا في حَضْرة العُصُور جميعاً
فزمانُ الأديبِ.. كلُّ الزمانِ..

* * *

ضوءُ عينيكَ.. أم حِوارُ المرايا
أم هما طائرانِ يحترقان؟
هل عُيُونُ الأديب نهرُ لهيبٍ
أم عُيُونُ الأديب نهرُ أغاني؟
آهِ يا سيِّدي الذي جعلَ الليلَ
نهاراً... والأرضَ كالمهرجانِ..
إرْمِ نَظَّارتَيْكَ كي أتَملَّى
كيف تبكي شواطئُ المَرْجانِ..
إرْمِ نَظَّارتيكَ.. ما أنت أعمىَ
إنَّما نحنُ جَوْقةُ العُمْيان..

* * *

أيُّها الفارسُ الذي اقتحم الشمسَ
وألقى رِدَاءَهُ الأُرجُواني
فعلى الفجرُ موجةٌ من صهيلٍ
وعلى النجم حافرٌ لِحصَانِ..

أزْهَرَ البَرْقُ في أناملك الخَمْسِ
وطارتْ للغرب عُصْفُورتَان
إنَّكَ النهرُ، كم سقانا كؤوساً
وكسانا بالورد والأقحوانِ
لم يَزَلْ ما كَتَبْتَهُ يُسْكِرُ الكون
ويجري كالشَهْد تحت لساني
في كتاب (الأيَام) نوعٌ من الرَسْم
وفيه التفكيرُ بالألوان..
إنَّ تلك الأوراق حقلٌ من القمح
فَمنْ أينَ تبدأُ الشَفَتَان؟
وَحْدَكَ المُبْصرُ الذي كَشَفَ النَفْسَ
وأسرىَ في عُتْمة الوجدان
ليس صعباً لِقَاءُنا بإلهٍ..
بل لقاءُ الإنسانِ.. بالإنسانِ..

* * *

يا سارقَ النار
ويا كاسراً حدودَ الثواني
عُدْ إلينا.. فإنَّ عصرَكَ عصرٌ
ذهبيٌّ.. ونحن عصرٌ ثاني
سَقَطَ الفكرُ في النفاق السياسيِّ
وصار الأديبُ كالبَهْلَوانِ

يتــعــاطى التــبـخـيــرَ.. يحـتــرفُ الرَّقْصَ..
عُـــدْ إلينا.. فـــإنَّ مـــا يُكْتَبُ اليـــومَ
صـــغـيـــر الرؤى.. صـــغـيـــرُ المعـــاني
ذُبحَ الـشـعــرُ.. والقَــصــيــدةُ صـــارتْ
قـــينةً تُشْـتَــرى كـكلِّ القـــيَــان
جَـــرَّدُوهـا من كـلِّ شـيءٍ.. وأدمَـــوْا
قَـــدَمَـــيْـــهـــا.. بـاللَّـفِّ والدَّوَرانِ
لا تَــسَــلْ عــن روائــع المــتــنــبّــي
والشـــريـف الرضـيِّ، أو حَـــسَّـــان..
مـــا هُـوَ الشـعـــرُ؟ لَنْ تُلاقي مُـــجـيـبـــاً
هُـوَ بـين الجُنُـون والـهَـــــــذَيـانِ

* * *

عُـــدْ إلينا، يـا ســيِّــدي، عُـــدْ إلينا
وانْتَــشِلْنا مـن قَــبْــضــةِ الطُّوفَــانِ
أنتَ أرضَـــعْــتَنـا حليبَ التــحـــدّي
فَـطَـحَـنَّـا الـنـجـــومَ بـالأسـنـان..
واقـــتـلـعـنـا جلودَنـا بـيَــــدَيْـنَـا
وفَـكَكْـنَـا حـــجـــارةَ الأكـــوانِ
ورفَـــضْـنَا كـلَّ الســـلاطينِ فـي الأرضِ
رَفَـــضْـنا عـــبـــادةَ الأوثـان
أيُّهـــا الغـــاضبُ الكبــيـــرُ.. تـأمَّلْ

كـيف صـارَ الكُتّـابُ كـالخِـرْفـانِ

قَنـعُـوا بالحـيـاة شـمـسـاً.. ومـرعىً

واطـمـأنّـوا لـلـمـاء والغُـدْرانِ

إنَّ أقـسـى الأشـيـاء للنـفْس ظُلـمـاً..

قَلَـمٌ في يـد الجـبـانِ الجـبـانِ..

* * *

سـامـحـيني يا مِـصْـرُ.. إن جـمحَ الشِّـعْـرُ

فـطَـعْمُ الحـريق تحت لـسـانـي

سـامـحـيني.. فـأنـت أمُّ المُرُوءاتِ

وأُمُّ الـسـمـاحِ والـغُـفْـرانِ..

سـامـحـيني.. إذا احـتـرقْتُ وأحْـرَقْتُ

فـلـيـس الحـيـادُ فـي إمْـكـانـي

مِـصْـرُ.. يا مِـصْـرُ.. إنَّ عـشـقي خطيـرٌ

فـاغـفـري لـي إذا أضـعتُ اتّـزاني...

* * *

أنا يا صديقة متعب بعروبتي

في حقبة من أكثر فترات التنافر العربي والصراعات العربية بعد توقيع معاهدة السلام وانتقال الجامعة العربي إلى تونس، واستغلال بعض الأنظمة العربية للصيد في الماء العكر للقيام بدور مصر التي حاولوا إبعادها عن الساحة السياسية، حضر نزار احتفال الأمانة العامة للجامعة العربية بتونس، بمناسبة مرور خمسة وثلاثين عاما على تأسيس الجامعة العربية، وكانت مناسبة ليلقي نزار هذه القصيدة التي تناولت مأساة التشرذم العربي التي وصفها نزار بأن أسوأ ما في تلك المرحلة وصولنا إلى حالة من التآكل القومي لا يمكن إعادة ترقيعها بسبب هبوط الأماني العربية، والنفس العربية، والإرادة العربية والذاكرة العربية إلى ما تحت الصفر حتى شهوتنا للحياة كأمة ترغب في البقاء، وترغب في التوحد وترغب في الدفاع عن ثقافتها وحضارتها وتاريخها فقدت شهوتها ولذلك كانت صرخة نزار اليائسة إلى حبيبته بأنه متعب بعروبته وبرغم تلك الصورة القاتمة الكئيبة كان نزار يأمل في غد أكثر إشراقا:

فلربما تجد العروبة نفسها ويضيء في قلب الظلام شهاب

حيث كان يرى أن فكرة القومية العربية تحتاج إلى عرب يقاتلون من أجلها.. فنحن في حاجة إلى زعّيم موحد كصلاح الدين الأيوبي أو جمال عبد الناصر ليحقق هذا الحلم الرائع الذي كان يخايل أحلام نزار.

أنا يا صديقة..

متعب بعروبتي

ألقيت في المهرجان الذي أقامته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في مدينة تونس بتاريخ ٢٢ / ٣ / ١٩٨٠ بمناسبة مرور خمسة وثلاثين عاماً على تأسيس الجامعة العربية.

يا تونس الخضراء.. جئتك عاشقاً
وعلى جبيني وردة وكتابُ
إنّي الدمشقيُّ الذي احترفَ الهوى
فاخْضَوْضَرَتْ لغنائه الأعشابُ
أحْرَقْتُ من خلفي جميعَ مراكبي
إنَّ الهوى أنْ لا يكونَ إيابُ
أنا فوقَ أجفان النساءِ مُكسَّرٌ
قطَعاً، فعُمْري الموجُ والأخشابُ
لم أنس أسماءَ النساء.. وإنّما
للحُسْن أسبابٌ، ولي أسبابُ
يا ساكناتِ البحر.. في قَرْطَاجَة
جَفَّ الشذا، وتفرّق الأصحابُ
أينَ اللواتي حُبُّهنَّ عبادةٌ
وغيابُهُنَّ، وقُربُهنَّ، عَذَابُ
اللابساتُ قصائدي ومَدَامعي
عاتبتُهُنَّ فما أفادَ عتابُ
أحْبَبْتُهُنَّ، وهُنَّ ما أحْبَبْنَني
وصَدَقْتُهُنَّ، ووعْدُهُنَّ كِذَابُ
إنّي لأشعُرُ بالدُوار.. فناهدٌ
لي يطمئنُّ.. وناهدٌ يرتابُ
هل دولةُ الحبِّ التي أسَّسْتُها

سَقَطتْ عليَّ.. وسُدَّتِ الأبوابُ
وتخونُني الأقراطُ والأثوابُ؟
ماذا جرى لممالكي وبيارقي؟
أدعو ربابَ.. فلا تُجيبُ رَبَابُ
أَأُحاسبُ امرأةً على نسيانها
ومتى استقامَ مع النساء حِسَابُ؟
ما أسْخَفَ العُشَّاقَ لو هُمْ تابُوا..

* * *

قَمَرٌ دمشقيٌّ يسافرُ في دمي
وبلابلٌ.. وسنابلٌ.. وقِبَابُ
الفلُّ يبدأ من دمشقَ بياضَهُ
وبعطرها تتطيَّبُ الأطيابُ
والماءُ يبدأُ من دمشقَ.. فحيثما
أسندتَ رأسَكَ، جدولٌ ينسابُ
والشِعْرُ عصفورٌ يمدُّ جناحَهُ
فوق الشآم.. وشاعرٌ جوَّابُ
والحبُّ يبدأ من دمشقَ.. فأهلُنا
عبدوا الجمالَ، وذوَّبوه.. وذابُوا..
والخيلُ تبدأ من دمشقَ مسارَها
وتُشَدُّ للفتح الكبير رِكَابُ

والدهرُ يبدأ من دمشقَ.. وعندها
تبقى اللغاتُ، وتُحفَظُ الأنسابُ
ودمشقُ تعطي للعروبة شكلَها
وبأرضِها، تتشكَّلُ الأحقابُ

* * *

بدأ الزِفافُ، فمن تكونُ مُضيفتي
هذا المساءَ، ومَنْ هو العَرَّابُ؟
أأنا مُغنّي القصر.. يا قَرْطَاجَةٌ
كيفَ الحضورُ؟ وما عليَّ ثيابُ
ماذا أقولُ؟ فمي يفتِّشُ عن فمي
والمُفْرداتُ حجارةٌ وتُرابُ..
فمآدبٌ عربيةٌ.. وقصائدٌ
همزِيَّةٌ.. ووسائدٌ وحُبَابُ
لا الكأسُ تُنْسينا مساحةَ حزننا
يوماً.. ولا كلُّ الشرابِ شَرَابُ
من أين يأتي الشعرُ يا قَرْطَاجَةٌ
وإله الشعر ماتَ.. وعادتِ الأنْصَابُ
من أين يأتي الشِعْرُ؟ حين نهارُنا
قَمْعٌ، وحينَ مساؤنا إرهابُ

سَرَقوا أصابَعنا.. وعطْرَ حُروفنا
فبأيِّ شيءٍ يكتُبُ الكُتَّابُ؟
والحُكْمُ شُرْطيٌّ يسيرُ وراءَنا
سراً.. فَنكْهَةُ خُبْزِنا استجوابُ
الشِعْرُ.. رغْمَ سِيَاطِهِمْ وسُجُونِهِمْ
مَلِكٌ.. وهُمْ في بابِهِ حُجَّابُ..

* * *

من أينَ أدخُلُ في القصيدة يا تُرى؟
وحدائقُ الشعرِ الجميلِ.. خرابُ
لم يبقَ في دار البلابل بُلْبُلٌ
لا البحتريُّ هُنا.. ولا زِرْيابُ
شُعَراءُ هذا اليوم، جِنْسٌ ثالثٌ
فالقولُ فوضى.. والكلامُ ضَبَابُ
يتكلَّمونَ مع الفراغ.. فما هُمُ
عَجَمٌ إذا نَطَقُوا.. ولا أعْرابُ
اللاهثونَ على هوامش عُمْرِنا
سِيَّان إن حَضَرُوا، وإنْ هُمْ غابُوا..

* * *

من أينَ أدخُلُ في القصيدة يا تُرى؟
والشمسُ فوق رؤوسنا سِرْدابُ
إنَّ القصيدة ليسَ ما كتبتْ يدي..

لكنَّها ما تكتبُ الأهدابُ
نارُ الكتابة أحرقتْ أعمارَنا
فحياتُنا الكبريتُ والأحطابُ
ما الشِعْرُ؟ ما وَجَعُ الكتَابةِ؟ ما الرؤى؟
أولى ضحايانا هُمُ الكُتَّابُ
يُعْطُونَنَا الفَرَحَ الجميلَ.. وحظُّهُمْ
حظُّ البغايا.. ما لهُنَّ ثَوابُ
يا تُونسُ الخضراءُ.. هذا عالمٌ
يُثرى به الأمِيُّ.. والنصَّابُ..

* * *

هل في العُيُون التُونُسيَّةِ شاطئٌ
ترتاح فوقَ رماله الأعصابُ؟
أنا يا صديقةُ مُتْعَبٌ بِعُرُوبتي
فهل العروبةُ لَعْنَةٌ وعِقَابُ؟
أمْشي على وَرَق الخريطة خائفاً
فعلى الخريطة كلُّنا أغْرابُ..
أتكلَّمُ الفُصْحَى أمام عشيرتي
وأُعيدُ.. لكن ما هناكَ جوابُ
لولا العباءاتُ التي التفُّوا بها
ما كنتُ أحسَبُ أنَّهُمْ أعرابُ..
يتقاتلون على بقايا تَمْرَةٍ

فـــخناجـــرٌ مـــرفـــوعـــةٌ وحِـــرابُ
قُـــبُـــلاتُـهُمْ عـــربيّـــةٌ.. من ذا رأى
فـــيـــمـــا رأى، قُـــبَـــلاً لـهـــا أنيـــابُ

* * *

يا تُـونُسُ الخَـــضْـــراءُ.. كـــأسـيَ عَلْـقَمٌ
أعَلَـى الهـــزيـمـة تُشْـــربُ الأنـخـــابُ؟
وخـــريـطةُ الوطن الـكبـيـــرِ فـضـيـحـــةٌ
فـــحـــواجـــزٌ.. ومـــخـــافـــرٌ.. وكِـــلابُ
والعـــالـمُ العـــربيُّ.. إمَّـــا نَعْـــجَـــةٌ
مـــذبوحـــةٌ، أو حـــاكـمٌ قَـــصَّـــابُ
والعـــالـمُ الـعـــربيُّ يرهُـنُ سَـــيْـــفَـــهُ
فـــحـكايةُ الـشَـــرَف الرفـيـــع سَـــرَابُ

* * *

يا تُـونُسُ الخَـــضْـــراءُ.. كـــيف خـــلاصُنا؟
لم يـبقَ من كُـــتُب الـسـمـــاءِ كِـــتـــابُ..
مـــاتَـتْ خـــيـــولُ بـني أمـــيّـــةَ كلُّـهـــا
خَـــجَـــلاً.. وظَلَّ الصَـــرْفُ والإعـــرابُ

* * *

بَحْـــريَّةَ العَـــيْنَيْـنِ.. يا قَـــرْطَـاجـــةٌ
شـــاخَ الـزمـــانُ، وأنت بَـعْـــدُ شـــبـــابُ

هل لـي بِعَـرضِ البـحـر نِصْفُ جـزيرةٍ؟
أم أنَّ حـبّـي التـونسـي سَـرَابُ
أنا مُـتْـعَبٌ.. ودفـاتري تَـعِـبَتْ مـعي
هـل للـدفـاترِ يا تُـرى أعـصـابُ؟
حُـزْني بَنَـفْـسَـجَـةٌ يُـبلِّلُـهـا الـنَدَى
وضِـفـافُ جـرحي روضـةٌ مِـعْـشَـابُ
لا تَعْـذُلِيـني.. إن كـشَـفْتُ مـواجـعي
وجـهُ الحـقـيـقـةِ مـا عليـه نِقَـابُ
إنَّ الجُـنُونَ وراءَ نِـصْـف قـصـائـدي
أوَلَـيسَ فـي بـعـض الجـنـون صَـوَابُ؟
فـإذا صـرختُ بوجـه من أحْـبَـبْـتُـهُمْ
فـلكـيْ يعـيـشَ الحُبُّ والأحْـبَـابُ
وإذا قـسـوتُ عـلى العـروبة مَـرَّةً
فـلقـد تـضـيقُ بـكُحْـلها الأهـدابُ
فلـربما تَـجِـدُ الـعـروبةُ نَفْـسَـهـا
ويـضيءُ فـي قـلب الـظـلام شِـهـابُ

* * *

قَـرْطَـاجـةٌ.. قَـرْطَـاجـةٌ.. قَـرْطَـاجـةٌ..
هل لـي لصـدركِ رَجْـعـةٌ ومَـتَـابُ؟

لا تغـــضــــبي منّـي.. إذا غَلَـبَ الهــــوى
إنَّ الــهــــوى في طبــــعــــه غَـــلاَّبُ

***

من ديوان «الأعمال السياسية الكاملة» ١٩٩٣

أحزان المنفى الاختياري

وكان إحساس نزار بالوحدة والوحشة غالبًا في بيته بمنفاه الاختياري بلندن، فكان يقطع الوقت بكتابة الخواطر الذاتية أو إرسال رسائل لبعض أصدقائه أو معارفه، أو لبعض الكتاب والصحفيين، وقد أماط الكاتب عادل حمودة اللثام عن بعض رسائل نزار فقال:(1).

بينب وبين نزار عمر من الكلمات والذكريات والحكايات .. والفاكسات .. كان جهاز الفاكس في تصوره ذورة العبقرية البشرية .. تدس بين أنيابه ورقة مقلوبة على وجهها وأنت في لندن .. فيتبعثر ما فيها من سطور وحروف في الهواء .. ليلتقطها جهاز آخر في القاهرة دون أن يضيع منها شيء .. وقد استهوته اللعبة .. ما إن يستبد به الأرق ليلاً حتى يمسك بورقة وقلم ويكتب ما يفرضه عليه شيطانه.. ويرسله إلى من يخطر على باله في تلك اللحظة من أصدقائه .. وهكذا خظيت برصيد من خواطره ومتاعبه وطرائفه يجعلني أتذكره رغم أن الفاكس أصبح في زمن الكومبيوتر والانترنت «دقة» قديمة.

لندن - ١٨ يوليو ١٩٩٤- الثالثة صباحًا - شرفة بيتي في حي نايتس بريدج: يلح على ذاكرتي وأنا أمسك بالطبعة الخمسين من ديواني الشعري الأول «قالت لي السمراء» ذلك الرجل المغربي العابر الذي غير مسار حياتي .. كان ذلك منذ ٤٠ سنة بالضبط .. الرجل في تلك الأيام كنت قنصلاً لسوريا في لندن .. وقد جاء الرجل وحصل على التأشيرة التي طلبها .. لكنه سأل سكرتيرتي : هل القنصل الذي وقع على التأشيرة هو نزار قباني الشاعر أم زنه شخص آخر؟ .. وأجابته السكرتيرة: هما شخص واحد .. وظهرت الدهشة على وجهه والتمعت عيناه وطلب مقابلتي .. وانفتح الباب .. ودخل منه رجل أسمر الملامح . . نحيل القامة .. يحمل معه كتبًا وجرائد .. توحي هيئته الخارجية بأنه أحد أولئك الطلبة المغاربة

(١) الأهرام - ٩ أغسطس ٢٠٠٣ .

الذين يدرسون في بريطانيا.

نهضت لاستقباله مبتسمًا وطلبت منه أن يجلس ويشاركني القهوة ولكنه رفض أن وبقي مزروعًا في منتصف الغرفة وفي عينيه شهوة واضحة للقتال والتحدي .. ظللت صامتًا ومبتسمًا حتى خرج الرجل عن صمته .. وقال بلغة يغلب عليها التوتر والانكسار: يا سيدي الشاعر ولا أقول يا جناب القنصل لأن كل الألقاب الأخرى المضافة إلى اسمك كشاعر لا تهمني .. قل لي بالله عليك ما الذي تفعه وراء هذا المكتب؟.. هل مهمتك أن تنظر في جوازات السفر وتدقق في أسماء طالبي التأشيرات .. وتلصق الطوابع عليها وتمهرها بتوقيعك الشريف؟.. لا يا سيدي هذا عمر يمكن أن يقوم به أي موظف من العصر العثماني.. أما أنت فشاعرنا وصوت ضميرنا والناطق الرسمي باسم أحلامنا وأفراحنا وأحزاننا وهمومنا القومية والعاطفية.. أتوسل إليك باسم جميع الأنبياء والشعراء الذين استشهدوا من أجل كلمة جميلة أن تترك هذا المكان فورًا .. وتبقى عصفورًا يوقظ الشعوب من غيبوبتها ويغني للحرية والإنسان في كل مكان.

خرج الرجل من مكتبي دون كلمة وداع.. وغادر القنصلية كالبرق تاركًا وراءه كلماته الغاضبة تشتعل كالحرائق الصغيرة في رأسي وثيابي وأوراق مكتبي .. والحقيقة أن الرجل ذهب ولم يذهب .. لأن كلماته ظلت تطاردني ١٢ سنة حتى ظهر لي مرة ثانية وهو يلوح لي بمنديله وأنا على ظهر السفينة في ميناء برشلونة منتظرًا رحيل الباخرة إلى بيروت.. كان واقفًا على رصيف المرفأ والدمع في عينيه وعلامات الانتصار واضحة عليه .. عندما بدأت الباخرة تبتعد عن الرصيف وصلن أصداء كلماه وهو يقول: شكرًا لك .. أيها الشاعر شكرًا لأنك اخترت الشعر.

لندن - ٢٨ سبتمبر - ١٩٩٧ الثانية والنصف صباحًا - حجرة مكتبي : اعتذرت سعاد حسني عن عدم تناول العشاء معي وسط كومة من الأصدقاء يتمنون كلمة واحدة منها .. تذكرت وصف محمد عبد الوهاب لها .. «الياقوتة الثمينة التي تزين بها الجميع ثم باعوها في سوق الكانتو» ..لعلك تتذكر ذلك الوصف الذي سمعناه منه سويًا ونحن في مصيف بلودان قبل سنوات .. وقد أثارني الوصف وحرضني

على تأمل محمد عبد الوهاب .. فهو ظاهرة ثقافية أكثر منه ظاهرة صوتية .. إنه عقل يغني .. الصوت الجميل هبة من عند الله .. ولكن الصوت الذي لا يثقف نفسه ولا يتطور ولا يجدد معارفه ولا ينفتح على ثقافات الدنيا يبقى صوته أميًا .. والصوت الأمي يشتعل بسرعة .. وينطفئ بسرعة .. لأنه لا يملك الوقود الثقافي الذي يسمح له بالاستمرار .. وعالمنا العربي يكتظ في هذه المرحلة الغنائية الهابطة بعشرات الأصوات التي لا عقل لها .. ولا عمر لها .. ولا مستقبل لها ..

لقد تعرفت على محمد عبد الوهاب عام ١٩٤٥ عن طريق صديقي الشاعر كامل الشناوي وكنت حينئذ أخطو خطواتي العشرية الأولى .. وقد تمنيت وقتها أن أقرأ شعري أمامه لعل الحظ يبتسم لي فيختار لي إحدى قصائدي للغناء .. لكني لم أدخل هذه المغمرة لأني كنت مدركًا أنه لا يزال واقعًا تحت جاذبية أمير الشعراء أحمد شوقي .. كنت مدركًا زن الذي يلحن «وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك» لن يلحن على المقاعد بعض من سجائره وفي الزوايا بقايا من بقاياه .. لذلك كان لابد أن أنتظره ٣٠ سنة ليلحن لي عام ١٩٧٠ قصيدة «ماذا أقول له؟» التي عنتها نجاة متحررًا بذلك من تركة أمير الشعراء وبصماته التاريخية .. ولعلك تتذكر أن محمد عبد الوهاب روى لنا كيف دخل عليه بعض أصحابه وهو يلحن تلك القصيدة سمعوه يدندن بجملة «على المقاعد بعض من سجائره» «فقفزوا من مكانهم وقالوا له: «ما هذا الانقلاب الخطير في ذوقك يا أستاذ .. يعني بعد قصيدة مجنون ليلى عايز تغني للسجائر والجرانيل؟ .. حرام عليك يا أستاذ.

وضع الأستاذ العود إلى جانبه وقال لهم بكل ثقة: «يا حضرات الأساتذة أنا لحنت قصيدة نزار قباني لأنها تعبر عن الحب في العصر الذي نعيشه .. وفي هذا العصر لم يعد العشاق يمارسون الهوى تحت الخيام وإنما صاروا يجلسون في الكافتيريات ويدخنون السجائر ويطالعون الصحف ويتابعون أخبار العالم .. إن الأغنية يجب أن تكون صورة من القرن العشرين لا صورة من القرن الجاهلي.

لقد كا محمد عبد الوهاب دائمًا يسبق الأشياء ولا يمشي وراءها .. وأهم ما فيه أن حياته كانت مرسومة بالمسطرة .. فلا مبالغة في شيء . . ولا استهتار في شيء ..

ولا شراهة في شيء.. وإنما حياة تقترب كثيرًا من حياة الرهبان والمتصوفين.. يأكل بهدوء. وينام وهو مستيقظ. ويلبس كالأمراء.. ويخاف على جسده كما تخاف امرأة على خاتم عرسها.. لذلك استطاع أن يحمي فنه من التلوث.. ورغم آلاف المغريات التي كانت تحيط به كفنان ملأ الدنيا وشغل الناس ورغم نداءات الليل والشراب والنساء والتهتك والانحلال إلا أنه بقي محتفظًا بعذريته الجسديةوالفنية.. إنه مدرسة في الانضباط وتحمل المسئولية..

في مصيف بلودان ولكن في مرة سابقة غير تلك المرة التي التقينا فيها معًا تصادف أن نزلنا في فندق واحد وفي غرفة الطعام كنت أجلس معه وأطلب ذات الطعام الذي يطلبه وأشرب من زجاجة ماء «أفيان» التي يشرب منها وأرفض لمس الحلويات العربية واحتساء القهوة بعد الطعام .. حتى قال لي بعد يومين.. «سيبك من الشقا ده يا نزار.. أنت لو استمريت شهر على هذا النضال حيصير شكلك ذي المهاتما غاندي».

تعلمت من «الكبير» محمد عبد الوهاب أيضًا قلقه وخوفه من مواجهة الناس.. لقد كان بعد سبعين سنة من العطاء يرتعش كورقة في مهب الريح ويتمتم من وراء الكواليس عشرات الآيات القرآنية قبل أن يقدم عملاً جديدًا.. إنه خوف جميل لا يزال يعصف بي أنا أيضًا قبل كل أمسية شعرية كأنني طفل صغير يستعد لدخول الامتحان.. إن الفنان مهما ارتفع في سماء الشهرة ومهما سلطت عليه الأضواء يبقى خائفًا على مستواه على سمعته وعلى تاريخه.. هذا خوف صحي .. وهو سمة مشتركة بين جميع المبدعين.

بيروت - ١٣ نوفمبر ١٩٨٧ - دون تحديد مكان: عدت من أمسية شعرية في طرابلس عاصمة الشمال اللبناني الرائعة .. كنت هناك قبل سنوات طويلة .. بالتحديد في عام ١٩٧٣ .. وطوال طريق الذهاب والعودة وأنا أتذكر تلك الحادثة المثيرة التي وقعت لي في ذلك العام وحولت أعصابي إلى أسلاك من الرماد ودمي إلى سائل بنفسجي .. حادثة أفقدتني توازني خلال لحظات وأدخلتني في امتحان صعب لا أعرف كيف أجيب على أسئلته كأن ذاكرتي توقفت على العمل.

أنت تعرف كيف يوقع الكتاب في الغرب على مؤلفاتهم.. إنهم يكتفون بتوقيع أسمائهم دون كلمات أخرى .. لكننا في الشرق العربي نجد أنفسنا في مظاهرة حب من القراء والمعجبين.. يطالبوننا بسدادها على هواهم.. فهم يملون عليك النص الذي يريدونه في الإهداء.. فإذا كان الفتى عاشقًا طلب منك أن تكتب اسم حبيبته وعنوانها ورقم تليفونها وبيتي شعر يتغزلان في عينيها.. ولو كانت الفتاة واقعة في بحر الهوى طلب إليك أن تكتب لحبيبها عن أمواج الحنين التي تتقاذفها كلما تذكرته.. على أن مثل هذه العبارات هي في الحقيقة فواتير سهلة السداد .. ولا يمكن أن تصل إلى ما تعرضت له في طرابلس.

بعد الأمسية الشعرية الحاشدة التي قدمتها بدعوى من نادي الجامعيين في الشمال في حديقة الرابطة الثقافية في طرابلس التف الجمهور حولي طالبًا التوقيع على مجموعاتي الشعرية أو على دفاتر الأتوجراف التي يحملونها .. وقد بدا كل شيء هادئًا طبيعيًا إلى أن جاء الزلزال على صورة امرأة مديدة القامة سوداء العينين بدوية الملامح.. تقدمت من خلال الحشد الكبير إلى حيث كنت أجلس وسألتني بصوت عميق واثق من نفسه: هل تسمح بأن توقع لي ؟.. والمفاجأة البسيطة أنها لم تكن تحمل أوتوجرافًا أورقة كلينكس أو ورقة عملة أو ورقة عادية.. فقلت لها: أين تريدين أن أوقع لك؟.. لكن المفاجأة المذهلة أنها قالت: على فخذي إذا سمحت! ورفعت ثيابها أمام الجمع الغفير دون أن يرف لها جفن أو يرتجف لها عصب.

تمالكت نفسي وبلعت ريقي من هول ما أنا فيه.. وكان لابد من اتخاذ قرار سريع لمواجهة هذا التحدي الكبير.. إما أن أوقع وأكسب المعركة وإما أن أرفض فأخون تاريخي كشاعر أعطي المرأة أجمل شعره على مدى خمسين سنة.. وبدأت أحفر توقيعي على البرونز المشتعل كنحات محترف يشتغل بإتقان على تمثال جميل والناس من حولي في ذهول أمام الحوار الذي يدور بين الشاعر والبرونز.. إنها أول تجسيد حي لامرأة خارجة على القانون صورتها في شعري .. مأساة أن يواجه الشاعر في الواقع امرأة تخيلها على أوراقه.

عندما اضطر نزار إلى الإقامة في منفاه الاختياري بلندن حوالي سنة ١٩٨٤ وظل حتى رحيله (١٩٩٨) وجد في منفاه واحته التي افتقدها في وطنه العربي، فمارس من هناك حريته وفي إطلاق قصائده النارية دون خوف أو وجل، وعلى حد تعبيره «لم يخفف المنفى من حدة صراخي، ولم يقطع خيوطي مع من أحبهم، على العكس أشعر أن مساحة صوتي قد زادت اتساعا، ورسالتي قد زادت انتشارا.. وأن الشعر مازال قويا، وقادرا على أن يرمي عصاه، فتلتهم كل الحواة والمهرجين»

ويصور نزار مفهومه للمنفى في حياته وشعره، فيقول:

«عندما كتبت «جميلة أنت كالمنفى» فتح الناس أفواههم مذهولين وسألوني كيف تشبه حبيبتك بالمنفى بعد أن كنت تشبهها بالقمر أو بالوردة أو بقوس قزح قلت: هذا هو ما أحسه فأنا لا أحتج على منفاي، ولا أتململ منه فهو جزء من حريتي.. والحرية هي ذروة الجمال.

«لم يعد في الوطن أقمار أو ورود أو أقواس قزح لنتغزل بها.. حتى «عيون المها بين الرصافة والجسر» أصبحت عيونا افتراضية «الالتصاق بالوطن ليلا ونهارا يورث الملل.. والالتصاق بالحبيبة من المهد إلى اللحد يورث الجنون.. المسافة بيننا وبين الأشياء التي نعشقها مهمة جدا.. فلكي يبقى الوطن جميلا وناضرا يجب أن يبتعد ولكي تبقى الحبيبة أكثر فتنة وإثارة.. يجب أن تختفي.. ولكي يبقى الشعر.. لابد أن يحتفظ بالمسافة بين جسده وجسد الأشياء، ولكي يبقى الشاعر في أحسن حالاته الشعرية لابد أن يظل متشردا وصعلوكا.. وضائعا بين الأرض والسماء».

صباحُ الخير.. أيُّها المنفي

ما عدتُ في المنفى أحِسُّ بغُرْبَةٍ
أو وَحْشَةٍ..
أو أشتكي هذا الرحيلَ القاسيا
قد أصبحَ المنفى صديقي الغاليا.

يأتي إلى المقهى معي،
يقرأ جرائدَهُ معي،
ويُعِدُّ وجبَاتِ الطعام معي،
ويقيسُ بَدْلاتي.. وقُمْصَاني..
ويلبسُ نصْفَ أحذيتي معي،
ويُحبُّ آلافَ النساء معي،
ويَمَلُّ من كُلِّ النساءِ معي،
وينامُ ملءَ جفُونِهِ
وأنا أظَلُّ مع القصيدة صَاحِيَا.

* * *

ما عُدْتُ في مُدُنِ الشمال مُمزَّقاً
مُتسكعاً..
مُتشرِّداً..
مُتهاوياً..
ما عدتُ في باريسَ أو في لندنِ
أمشي على ثلج الشوارع حافيا..
ما عدتُ أركضُ في الحدائقِ عاريا..
قد أصبحَ المنفى قميصاً ثانيا..

* * *

للحُبِّ في المنفى مَذَاقٌ آخَرٌ.
لضَيَاعنا الليليِّ في (سُوهُو) مَذَاقٌ آخَرٌ.

لشطائر (البيتْزا) مَذَاقٌ آخَر.
للبيرة الشقراءِ، طَعْمٌ آخَر.
للقهوة السوداءِ، طَعْمٌ آخَر.
للبَرْق والأمطار في عينْيك.. عُمْقٌ آخَرٌ.
للقُرْطِ في أُذُنَيْك، جَرْسٌ آخَرٌ.
حتَّى جُنُونُ الحبِّ حين نعيشُهُ
في لندن
يبدو جُنُوناً راقيا...

* * *

هل ممكنٌ؟
أن يصبحَ المنفي كأيَّة زوجةٍ
نختارُها يوماً، ولا نختارُها.
وتصيرَ رائحةُ المراكب عادةً
وتصيرَ أهدابُ النساء صواريا؟...

* * *

هل ممكنٌ؟
أن يصبحَ المنفي أبي.. ومُعلّمي..
وثقافتي.. وتُراثيا؟.
يُصغى إلي (يا جارة الوادي) معي
ولأمِّ كُلْثُومٍ معي
ولصَوتِ فيروزٍ معي

فأصيرَ أزهاراً.. وأشجاراً..
ونهراً جاريا...

* * *

شكراً لمنفايَ الجميلِ.. فإنَّهُ
أهدى إليَّ حضارةً.. وخرائطاً.. وموانئاً..
وقصائداً.. وقوافيا...
لم يكْسرِ المنفى عظامَ أصابعي
أبداً.. ولم يُخفِضْ جبيني العاليا.
فلقد زَرَعْتُ على الكواكب حِنْطَةً
وغَرَسْتُ فوقَ الأطلسيِّ دَوَاليا...

* * *

إنَّ المسافةَ لا تخيفُ مراكبي
فإذا ابتعدتُ..
فكي أكونَ الرائيا..
مادمتُ أكتُبُ.. ليس عندي مُشْكِلٌ
فأنا أُحدِّدُ وُجْهَتي.. ومكانيَا..
أنا قادرٌ أن أصنعَ الوطنَ الذي أختارُهُ..
بدقائقٍ..
وأشقُّ فيه جداولاً وسواقِيَا..

* * *

لم تَخْتَرِعْني دولةٌ . . أو سُلْطَةٌ

فأنا اخترعتُ قبيلتي . . وبلاديا . .[1]

***

(١) من ديوان «أنا رجل وأنت قبيلة من النساء» ١٩٩٣ .

أحبك..

الحب عند نزار هو موضوع كل عصر، والعصور التي لم تعرف الحب أسقطها التاريخ من حسابه، فكل الفنون بلا استثناء تشكلت وترعرعت وخرجت من رحم الحب يتساءل نزار بغضب: «لماذا تنظرون إليَّ باستغراب كلما كتبت قصيدة حب؟ لماذا تصرخون في وجهي كلما أحببت امرأة كأنني كسرت زجاج القمر؟ ألا تعرفون أنني بالشعر أجمّل وجه الكرة الأرضية؟ ألا تعرفون أنكم بدون شعر الحب الذي كتبته لكم مثل قوم عاد وثمود؟

وأما المرأة الحبيبة عند نزار فيرى أنها قضاء وقدر، وهي تأتي كما تأتي ليلة القدر بالمصادفة وتذهب بالمصادفة يقول نزار: «لا يمكنني أن أفعل شيئا لاستحضارها أو لاستعجالها إنها تطلع كورقة اليانصيب أو كورقة البنفسج.. لا أستطيع تحديد مواصفات المرأة التي قد تكون حبيبتي فليس هناك قواعد عامة في هذا الموضوع.. الشرط الوحيد الذي أطلبه هو أن تكون قادرة على تفجيري شعريا ليس من الضروري أن تكون حبيبتي ملكة جمال.. فملكات الجمال صالحة للسينما أو لتكون نجمة الغلاف لكنها لا تصلح لتكون غلافا لديوان شعر. إن نزار يرى الحياة أكثر جمالا والسماء أكثر اتساعا والقمر أكثر سحراً، فالمرأة الحبيبة عند نزار هي مصدر الإلهام والجمال وحب الحياة، حتى يتخلص من كآبة الواقع، وملوحة الحقيقة، وجهامة الزمن!

أحبُّكِ..

أُريدُ أن أُحبَّكِ، يا سيّدتي
كي أستعيدَ عافيتي
وعافيةَ كلماتي،
وأخرُجَ من حزام التلُوثِ

الذي يلُّف قلبي.
فالأرضُ بدونكِ
كذْبَةٌ كبيرَةْ..
وتُفَّاحَةٌ فاسِدَةْ...

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ
حتى أدْخُلَ في دينِ الياسمينْ
وأمارس طُقُوسَ البَنَفْسَجْ
وأُدافعَ عن حضارةِ الشِّعْر...
وزُرقَةِ البَحْر...
واخْضِرارِ الغاباتْ...

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ
حتَّى أطمئنَّ.
أنَّ غاباتِ النخيل في عَيْنَيْكِ
لاتزالُ بخيرْ..
وأعشاشَ العصافيرِ
لاتزالُ بخيرْ
وأسماكَ الشعْرِ التي تَسْبَحُ في دَمي
لاتزالُ بخيرْ...

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ
حتى أتخلّصَ من يَبَاسي . .
ومُلُوحتي . .
وتَكَلُّس أصابعي . . .
وأستعيدَ جداولي ،
وسَنَابلي ،
وفَرَاشاتي الملوَّنَةْ
وأتأكّد من قُدْرتي على الغناءْ
وقُدْرتي على البُكَاءْ . . .

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ
حتّى أستَرْجعَ تفاصيلَ بيتنا الدِمشْقيِّ
غُرْفةً . . غُرْفةً . . .
بلاطةْ . . بلاطةْ . .
حَمامةْ . . حَمَامةْ . .
وأتكلَّمَ مع خمسينَ صَفيحَةِ فُلْ
كانتْ أُمّي تستعرضُها كُلَّ صباحْ
كما يستعرضُ الصائغُ
لَيْرَاتِهِ الذهبيَّةْ . . .

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ، يا سيِّدتي
في زَمَنٍ..
أصبحَ فيه الحبُّ مُعاقاً..
واللّغَةُ معاقَةْ..
وكُتُبُ الشعرِ، مُعَاقَةْ..
فلا الأشجارُ قادرةٌ على الوقوف على قَدَمْيها،
ولا العصافيرُ قادرةٌ على استعمال أجْنِحَتِهَا،
ولا النجومُ قادرةٌ على التنقُّلْ
بدون تأشيرات دُخُولْ....

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ..
قبلَ أن يَنْقَرِضَ آخِرُ غَزَالٍ
من غُزْلان الحريَّةْ..
وآخِرُ رسالةٍ
من رسائل المحبيّنْ
وتُشْنَقَ آخِرُ قصيدةٍ
مكتوبةٍ باللغة العربيَّةْ...

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ...
قبل أن يصدرَ مرسومٌ فَاشِستّيْ
بإقفال حدائق الحُبِّ..

وأريدُ أن أتناولَ فنجاناً من القهوةِ معكِ..
قبل أن يصادروا البُنَّ.. والفناجينْ
وأريدُ أن أجلسَ معك.. لدَقيقتَينْ
قبل أن تسحبَ الشرطةُ السرّيّةُ من تحتنا الكراسي..
وأريدُ أن أعانقَك..
قبلَ أن يُلْقُوا القَبْضَ على فَمي.. وذراعَيّْ
وأريدُ أن أبكيَ بين يَدَيْكِ
قَبْلَ أن يفرضُوا ضريبةً جمركيَّةً
على دُمُوعي...

* * *

أُريدُ أن أُحبَّك، يا سيِّدتي
حتّى أمتطيَ عَرَبَةَ الوقتْ
وأُغيِّرَ التقاويمْ
وأعيدَ تسميةَ الشُهُور والأيَّامْ
وأضبطَ سَاعاتِ العالم..
على إيقاع خطواتكْ
ورائحةِ عطرِك..
التي تدخُلُ إلى المقهى..
قبلَ دُخُولِكْ...

* * *

إنّي أُحبّكِ، يا سيِّدتي
دفاعاً عن حقِّ الفَرَسِ..
في أن تصهلَ كما تشاءْ..
وحقِّ المرأةِ.. في أن تختار فارسَها
كما تشاءْ..
وحقِّ السَمكة.. في أن تسبحَ كما تشاءْ
وحق الشَجَرةِ في أن تغيّرَ أوراقَها
كما تشاءْ..
وحقِّ الشعوب في أن تغيِّر حُكّامَها
متى تشاءْ....

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ..
حتى أُعيدَ إلى بيروتَ، رأسَها المقطوعْ
وإلى بحْرِها، معطفَهُ الأزرقْ
وإلى شعرائها.. دفاترهُمْ المُحْتَرِقَةْ
أُريدُ أن أُعيدَ
لتشايكوفسكي.. بَجَعتهُ البيضاءْ
ولبول ايلوار.. مفاتيحَ باريسْ
ولفان كوخ.. زهرةَ (دوَّار الشمسْ)
ولأراغون.. (عيونَ إلْزا)
ولقيس بن المُلَوَّحْ..

أمشاطَ ليلى العامريَّةْ. . . .

* * *

أُريدُكِ، أن تكوني حبيبتي
حتّى تنتصرَ القصيدةَ. . .
على المسدَّسِ الكاتِمِ للصوتْ. .
وينتصرَ التلاميذْ
على الغازات المُسيلَةِ للدموعْ
وتنتصرَ الوردةْ. .
على هرَاوةِ رَجُلِ البوليسْ
وتنتصرَ المكتباتْ. .
على مصانع الأسلحَةْ. . .

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ. .
حتى أستعيدَ الأشياءَ التي تُشْبهُني
والأشجارَ التي كانتْ تتبعُني. .
والقِطَطَ الشاميّة التي كانت تُخَرْمشني
والكتابات. . التي كانت تكتُبُني. .
أريدْ. . أن أفتحَ كُلَّ الجواريرْ
التي كانت أمي تُخبِّىءُ فيها
خاتم زواجها. .
وأساوِرَها الذهبيّةَ المبْرُومَةْ. .

ومسْبَحَتها الحجازيَّةْ..
وخُصْلةٌ من شَعْري الذهبّيْ..
بقيت تحتفظُ بها..
منذُ يوم ولادتي..

* * *

كلُّ شيءٍ يا سيِّدتي
دَخَلَ في (الكُومَا)
فالأقمارُ الصناعيّةْ
إنتصرتْ على قَمَرِ الشُعَرَاءْ
والحاسباتُ الالكترونيَّةْ
تفوَّقتْ على نشيد الإنشادْ..
وقصائدِ لوركا.. وماياكوفسكي..
وبابلو نيرُودا...

* * *

أُريدُ أن أُحبَّكِ، يا سيِّدتي...
قبل أن يُصْبحَ قلبي..
قطْعة غيارٍ تُبَاعُ في الصيدليَّاتْ
فأطِبَّاءُ القُلُوبِ في (كليفلاندْ)
يصنعونَ القلوبَ بالجُمْلَةْ
كما تُصْنَعُ الأحذِيَةْ....

* * *

الغيومُ العالية. .
أصبحَتْ تَتَسكَّعُ على الأسْفَلتْ. .
وجمهوريةُ أفلاطُونْ،
وشريعةُ حَمُّورابي،
وكلامُ الشعرْ،
صارتْ دون مستوى سَطْح البحرْ. .
لذلك نَصَحني السَحَرَةُ، والمُنجِّمُونَ،
ان أُحِبَّكِ. .

* * *

إلا الحب

أراد نزار باختيار شعار دولة الأغالبة في الأندلس «لا غالب إلا الحب» عنوانا لديوانه، ليرفع الحب إلى مرتبة القداسة، ولكي يجعله إلهاً لا يغلبه أحد.

فالحب عند نزار مملكة لا تتجزأ تمتد حدودها من تخوم الوطن إلى تخوم المرأة حب الوطن هو وطنية.. وحب المرأة هو أرقى أنواع الوطنية.. والذين لا يحبون المرأة لا يحبون الوطن، ولا يحبون شعوبهم، ولا يحبون الأرض، ولا يحبون الإنسان، ولا يحبون الله.

ويشفق نزار على من لا يحبون كما يشفق على إنسان معاق ولأن الجمهور عشيقة أخرى لا يتخلى عنها، ولا يخونها يحس نزار وهو يكتب بأنه ملتزم نحو المعشوقات الثلاث: المرأة، والوطن، والجمهور..

جعل نزار المرأة في شعره وطن الشعر وعاصمته الكبرى أراد أن ينهي هامشية المرأة الثقافية، ويجعلها سيدة القصيدة ومليكتها ويعتبر نفسه مواطنا في بلاطها الشعري .

الرجل العربي - في نظر نزار - يحب المرأة الخرساء.. أما المرأة الفصيحة فيعتبرها تحديا لفصاحته.

وعندما سئل نزار كيف يعيش حالة «اللاحب» أجاب بالحرف الواحد: «لم أجرب هذه المصيبة الكبرى حتى الآن.. فماذا سيبقى من نزار قباني يوم يتحول إلى محارة فارغة.. وشجرة صبير.. وهيكل عظمي لديناصور منقرض»؟

إلا الحب

برغْم ما يثورُ في عينيَّ من زوابعِ
ورغْم ما ينامُ في عينيْكِ من أحزانْ
برغْمِ عَصْرٍ

يُطْلِقُ النارَ على الجمالِ حيثُ كانْ،
والعَدْلِ حيثُ كانْ،
والرَأْيِ حيثُ كانْ،
أقولُ: لا غالبَ إلاَّ الحُبّ
أقولُ: لا غالبَ إلاَّ الحُبّ
للمرَّة المليون..
لا غالبَ إلاَّ الحُبّ
فلا يُغَطِّينا من اليَبَاسِ،
إلاَّ شَجرُ الحَنَانْ.

* * *

برَغْمِ هذا الزَمَنِ الخَرَابْ
برغْمِ عَصْرٍ يقتلُ الكِتَابَةْ
ويقتُلُ الكُتَّابْ...
ويُطْلِقُ النارَ على الحَمَامِ.. والورودِ..
والأعْشَابْ..
ويدفُنُ القصائد العصماء..
في مقبرة الكلابْ..
أقولُ: لا غالبَ إلاَّ الفِكرْ
أقولُ: لا غالبَ إلاَّ الفِكرْ
للمرَّة المليون،
لا غالبَ إلاَّ الفِكرْ..

ولَنْ تموتَ الكلْمَةُ الجميلَةْ
بأيِّ سيفٍ كانْ. . .
وأيِّ سجْنٍ كانْ. . .
وأيِّ عَصْرٍ كانْ. . .

* * *

بالرَغم ممَّنْ حصروا عينْيكَ. .
يا حبيبتي. .
وأحْرَقُوا الخُضْرَةَ والأشْجَارْ
بالرغمِ ممَّنْ حاصَرُوا نوَّارْ
أقولُ: لا غالبَ إلاَّ الوردُ،
يا حبيبتي،
والماءُ، والأزْهَارْ.
برَغْم كُلِّ الجَدْب في أرواحنا
ونَدْرَةِ الغُيُومِ والأمطارْ
ورغْم كُلِّ الليل في أحداقنَا
لابُدَّ أن ينتصرَ النَهَارْ. . .

* * *

في زَمَنٍ تَحَوَّلَ القلبُ بِهِ
إلى إناءٍ من خَشَبْ. .
وأصبحَ الشِعْرُ بِهِ،
قصيدةً من الخَشَبْ

في زمنِ اللا عِشْقِ.. واللا حلْمِ.. واللا بحرِ..[1]
واستقالةِ الأوراقِ، والأقلام، والكُتُبْ
لابُدَّ أن ينتصرَ الذَهَبْ..

* * *

برَغْمِ هذا الزَمَنِ الغارقِ في الشُذُوذِ..
والحشيشِ..
والإدْمَانْ..
برغْمِ عصْرٍ يكرهُ التمثال، واللوحةَ،
والعُطُور..
والألوانْ..
برغْمِ هذا الزَمَنِ الهاربِ..
من عبَادَة الله..
إلى عبادة الشَيْطَانْ..
برَغْمِ مَنْ قد سَرَقُوا أعمارنَا
وانْتَشلُوا من جيبنا الأوطانْ
برَغْمِ ألفِ مُخْبرٍ مُحْتَرِفٍ
صمَّمَهُ مهندسُ البيت مع الجُدْرَانْ
برَغْمِ آلاف التقارير التي
يكتبُها الجُرْذَانُ للجُرْذَانْ

(١) من ديوان «لا غالب إلاّ الحب» ١٩٩٠ .

من قتل مدرس التاريخ ؟

كانت لنزار رؤيته الخاصة لمواجهة الانهيارات الكبرى التي تواجه العالم وبالتالي تواجه أمتنا العربية، وهل يمكن للشعر أن يواجه ذلك، فكان يرى أنه ليس لدينا المادة الأولية للتواصل مع الآخرين.. وكان يعايش هذه الانهيارات المفروضة على الجميع حيث قال: «إنني لا أستطيع في النهاية أن أكون شاعرا كونيا لكنني أحاول في إطار البيئة والتاريخ اللذين عشتهما، أن أكوّن صورة لعصري وأعتقد أننا كشعراء في المنفى لم نستطع أن نفعل شيئا لنحد من سلبيات العالم الآخر، أو حتى لنتفاعل معه تفاعلا منتجا.

وكان نزار يرى أنه شاعر محكوم بعمليات الحزن العربي.. بالانهيارات العربية، وهو لا يعود إلى الوطن العربي ليعود إلى المأساة.. تلك المأساة التي حملها معه.. حتى الأمسيات الشعرية التي دعى إليها نزار وأقامها في لندن وباريس كانت أماسي عربية صرفا، فالكل من العرب هناك، يحمل حزنه في حقائبه، ويأتي ليستمع إلى صوت حزنه العربي.. بمعنى آخر، فهو لم يلق شعره على جمهور إنجليزي أو فرنسي، بل يدور على العرب المعذبين في الأرض، وعندما سئل نزار على من تلقي شعرك؟ قال: ألقيه على المعذبين في الشتات.

إذن ليس هناك من تغيير، فالعربي حيث كان، يحمل جرحه إن كان تاجرا أو طالبا أو رجل أعمال، يحمل جرحه ويطيب له أن يأتي شاعر ويغني له مأساته القومية كما حدث لنزار في لندن أو في باريس، كان نزار يعيش في منفاه الاختياري في سنواته الأخيرة في مأساة الأمة العربية ويدور مع بقية العرب في حمأة التراجيديا العربية!

وكان نزار يرى أن الحزن عنصر أساسي في الأعمال الابداعية جميعا في العالم مثل تجارب فان كوخ وكافكا وديك الجن الحمصي وسواهم ستجد أن التراجيديا هي الأساس في كل تجربة من هذه التجارب الكبيرة، وبالتالي كان نزار يرى أن الفرح

مادة عقيمة جدا .. لأن الفرح أناني والإنسان الفرح، يحاول دائما أن يكون وحده، وأن يكون مشغولا بفرحه، أما الحزن فهو غير ذلك تماما .. فعندما يبكي المرء، يحب أن يظهر بكاءه للآخرين وعندما اكتشف نزار الحزن، اكتشف فيه منجما من الأحاسيس الخصبة والغنية، واكتشف فيه أرضا شعرية لا آفاق لها .. وكانت قصيدته «بلقيس» التي كتبها في مصرع زوجته لم تكن مجرد قصيدة، وحسب بل، هي «مانفيستو سياسي» وهي اكتشاف آخر للحزن والشجن.

لذلك سكن الحزن قصائد نزار العاطفية والسياسية في سنواته الأخيرة، وكان يرى أن ذلك الحزن ليس حزنه الخصوصي فحسب لكنه حزن الوطن العربي كله، أو حزن الإنسان العربي بغير استثناء.. لذلك كان يتحدى أن يجرأ عربي أن يقول أنه سعيد أو مبتهج، أو متفائل في هذا الوطن العربي الممتد من الجرح إلى الجرح، ومن الدمعة إلى الدمعة!

وكان نزار يرى أن القضية ليست قضية خوف من الموت، فكلنا موجودون في جفن الردى وهو نائم، كما يقول المتنبي، ولكنها قضية هذا الانكسار اليومي الذي يواجهه الإنسان العربي في جسده، وفي روحه، وفي طعامه وشرابه، وفي فكره وثقافته وحريته.

ومن هنا كان تعبير نزار عن الحزن العربي في قصيدته «من قتل مدرس التاريخ؟!

فالبرغم مما تحتويه من أحزان قاتمة إلا أنها كانت بمثابة الكي بالنار لأخطاء وخطايا العرب حتى يستفيقوا وينهضوا ويخلعوا رداء الانهزامية والاتكالية والجمود إنها ليست صرخة يأس بقدر ما هي صرخة نداء لاستنهاض الهمم والعزائم.

يقول نزار قباني في قصيدته:

من أين يأتينا الفرح؟
ولوننا المفضل السواد
نفوسنا سواد

عقولنا سواد
داخلنا سواد
حتى البياض عندنا
يميل للسواد

* * *

من أين يأتينا الفرح؟
وكل ما يحدث في حياتنا
مسلسل استبداد
الوطن استبداد. .
والهجرة استبداد
والزوجة استبداد. .
وعشقنا لامرأة جميلة جدا
هو استبداد!!

* * *

من أين يأتينا الفرح؟
وكل طفل عندنا، تجري على ثيابه
دماء كربلاء. .
والفكر في بلادنا. . أرخص من حذاء
وغاية الدنيا لدينا. . الجنس والنساء!

* * *

من أين يأتينا الفرح؟

ونحن، من يوم تخاصمنا

على النسوان في غرناطة

تفككت أمتنا.. وهرهرت دولتنا

وطارت البلاد!!

* * *

الشجر الأطول في بلادي..

شجر الأحقاد!

* * *

يدهشني.. بأن كل وردة في وطني

تلبس في زفافها.. ملابس الحداد!

* * *

ليس لدينا أمة خالدة

أو دولة واحدة.. وإنما أفراد!

* * *

هل هذه جرائد نقرؤها؟

أم أنها جنازة.. ودعوة للحزن والحداد؟!

* * *

نصوصنا منقولة

أصواتنا.. تخرج من حناجر الأجداد!

أكره «ألف ليلة»..

وأكره النوم كمجذوب.. على ذراع شهرزاد!

* * *

من أين يأتينا الفرح؟

أطفالنا ما شاهدوا في عمرهم.. قوس قزح!!

* * *

من أين يأتينا الفرح؟

ونحن من يوم خرجنا من فلسطين

ومن ذاكرة الليمون، والخوخ تحولنا إلى رماد!

* * *

لقد أكلنا بعضنا بعضا

فهل تعذرنا الأسماك والجراد؟

* * *

من أين يأتينا الفرح؟

ما طار طير عندنا إلا انذبح

ولا نبي جاءنا.. إلا بأيدينا انذبح

ولا أتانا مصلح أو مبدع.. أو كاتب أو شاعر..

إلا على وسادة الشعر انذبح!

* * *

محرم في وطني تنقّل الهواء
محرم تنقل القصيدة
محرّمٌ.. محرّمٌ تنقل الأفعال والأسماء

* * *

في سالف الزمان.. كنا
أمراء الشعراء والبيان، والبديع، والخطابه
وأصبحت مهنتنا الآن.. بأن نفترس الكتابه!

* * *

أول قصر من قصور العلم والثقافة
أسسه الخليفة المأمون
وجاء حكام إلى بلادنا، من بعده
تخصصوا في مهنة القتل..
وفي هندسة السجون!

* * *

في زمن الطفولة قرأت آلاف الأقاصيص
عن النخوة.. والنجدة.. والعزة..
والإباء.. والفداء.. والسخاء.. والشجاعه..
ثم اكتشفتُ عندما دخلتُ في الكهوله
بأن نصف ما قرأته في حصة التاريخ،
ما كان سوى إشاعهْ!

هــذا أنــا

حين سئل نزار عن ذلك الشجن الذي اتسمت به شخصيته في العقد الأخير من حياته أجاب: «القول أني حزين.. لا يعني أنني تخليت عن غضبي، وتوتري، وعدوانيتي.. كما لا يعني أنني استسلمت لعصر الانحطاط العربي.

وكل ما في الأمر، أنني أشعر بأن صراخي يتفتت على رمال هذه الجاهلية العربية، وأن الشعر وحده لم يعد كافيا لإخراج الجسد العربي من حالة «الكوما»

«أنا صوت من الأصوات في هذا الفضاء الشعري العربي» ولذلك كان نزار يرى أن المرافئ هي مقبرة لطموح المراكب وأن الوصول لم يكن دائما غايته وإنما الإقلاع وذلك لأنه كان يفضل أن يكون كالسندباد المسافر دائما أو كالهولندي الطائر الذي حكمت عليه الأقدار بالإبحار الأبدي عن أن يكون قاربا سياحيا صغيرا لنقل الركاب في أقنية مدينة البندقية.

وحين سئل نزار عن مفاتيح شخصيته كانت إجابته: «مفاتيح شعري هي شعري نفسه، وقصائدي هي الصورة الفوتغرافية الوحيدة التي تشبهني وكتبي هي جواز سفري الحقيقي مفاتيح شعري ثلاثة: الطفولة، والثورة، والجنون.

بالطفولة أعني كل ما هو براءة ومكاشفة وتلقائية.

وبالثورة، أعني إحداث خلخلة وتشقق وكسور في كل الموروثات الثقافية والنفسية والتاريخية.

وبالجنون، أعني تفكيك ساعة العقل القديمة، والاعتراض العنيف على كل الأحكام القرقاشية الصادرة علينا من قبل ولادتنا».

فماذا يقول نزار قباني شعرًا عندما يعرّف نفسه؟

هذا أنا..

أدْمَنْتُ أحزاني
فصِرْتُ أخافُ أنْ لا أحْزَنا
وطُعِنْتُ آلافاً من المرآت
حتَّى صار يوجِعُني، بأنْ لا أُطْعَنَا
ولُعِنْتُ في كُلِّ اللُّغات..
وصارَ يُقْلقُني بأنْ لا أُلْعَنَا...
ولقد شُنِقْتُ على جِدارِ قصائدي
ووصيَّتي كانَتْ..
بأنْ لا أُدْفَنَا.
وتشابَهَتْ كُلُّ البلادِ..
فلا أرى نَفْسي هُنَاك
ولا أرَى نَفْسي هُنا...
وتشابَهَتْ كُلُّ النساء
فَجِسْمُ مَرْيَمَ في الظلامِ.. كما مُنَى..
ما كانَ شِعْري لُعْبَةً عَبَثِيَّةً
أو نُزْهَةً قَمَرِيَّةً
إنّي أقولُ الشعْرَ - سيِّدتي -
لأعْرِفَ مَنْ أنا....

* * *

يا سادتي:
إنّي أُسَافِرُ في قطارِ مَدَامعي
هَلْ يركبُ الشُعَراءُ إلاَّ في قطاراتِ الضنَى؟
إنّي أُفَكِّرُ باختراعِ الماء..
إنَّ الشعْرَ يجعلُ كُلَّ حُلْمٍ مُمْكِنَا
حتّى تُطلِعَ الصحراءُ، بعدي، سَوْسَنَا
وأنا أُفكِّرُ باختراع الناي..
حتى يأكُلَ الفقراءُ، بعدي (المَيْجَنَا).
إنْ صادروا وَطَنَ الطُفُولة من يَدِي
فلقد جَعَلْتُ من القصيدة مَوْطِنَا..

***

يا سَادتي:
إنَّ السماءَ رحيبةٌ جداً..
ولكنَّ الصَيَارِفَةَ الذين تقاسَمُوا ميراثَنا..
وتقاسَمُوا أوطانَنَا..
وتقاسَمُوا أجسَادَنا..
لم يتركُوا شِبْراً لنا..
يا سَادَتي:
قاتلتُ عصراً لا مثيلَ لقُبْحه
وفَتَحْتُ جُرْحَ قبيلتي المُتَعَفِّنَا..

أنا لستُ مُكْتَرِثاً
بِكُلِّ الباعَةِ المُتجوِّلينَ..
وكُلِّ كُتَّابِ البَلاطِ..
وكُلِّ من جعلوا الكتابةَ حِرْفَةً

* * *

يا سادتي:
عَفْواً إذا أقْلَقْتُكُمْ
أنا لستُ مضْطَرّاً
هذا أنا...
هذا أنا...
هذا أنا...

محمد رضوان

★ ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية الدقهلية بمصر في ١٥ سبتمبر عام ١٩٤٨م .

★ حاصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١م.

★ صحفي بدار الهلال - عضو نقابة الصحفيين - عضو اتحاد كتاب مصر.

★ يتبع المنهج النفسي في أدب السير والتراجم وله عدة تراجم أدبية.

★ من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت - انيس منصور - أحمد عبد المجيد - إبراهيم عيسى - عبد العليم القباني - د. مقداد يالجن - سعد حامد - كمال النجمي).

★ له خبرة في الصحافة الأدبية، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسا لتحرير مجلة «السراج» ومديراً لتحرير مجلة «النهضة» ويعمل حاليا كاتبا صحفيا بمجلة «الهلال» القاهرية

★ **من مؤلفاته التي صدرت:**

١ - صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك

٢ - مأساة شاعر البؤس، عبد الحميد الديب.

٣ - شاعر النيل والنخيل، صالح جودت.

٤ - رحلتي مع القلم.

٥ - شاعر الأطلال، ناجي.

٦ - شاعر الجندول، على محمود طه.

٧ - اعترافات شاعر الكرنك، أحمد فتحي.

٨ - شعراء الحب.

٩ - عندما يحب الشعراء.

١٠ - شاعر الهمسات أحمد عبد المجيد.

١١ - ليالي أبو نواس.

١٢ - عبقري من سنتريس؛ زكي مبارك.

١٣ - نزار قباني، شاعر الحب والحرية.

١٥ - ديوان عبد الحميد الديب «جمع وتحقيق»

١٤ - اعترافات السندباد التائه «تحت الطبع».

(ت ٣٣٨٤٠٠٩ - موبايل ٠١٠٦٦٥٩٢٢٤)

الفهرس